المشرق
بيروت

السنة التاسعة والثلاثون — تموز– ايلول ١٩٦١

الأَرض والأَعمال الزراعيَّة

في لبنان وسورية

على العهد اليوناني - الروماني*

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي
مدير معهد الآداب الشرقية

انّ مستقبل البلاد في زراعتها . كم تردّد على مسامعنا هـذا القول ، كلّما تناولنا البحث في موارد لبنان وسورية ! ومما لا شكّ فيه ان ارض الساحل الفنيقي، وارض سورية اجمالًا — وقد خلت من المعادن الثمينة خلوًّا من البترول — لا يمكنها إعاشة سكّانها الّا بالزراعة . والاراضي فيها صالحة للمزروعات ، وهي وافرة الخصب، اذا ما اعتُني بتنظيم ريّها . ثم انها، بفضل ما اختصّت به هذه

*) مادّة المحاضرة الاولى من محاضرات معهد الآداب الشرقية للسنة ١٩٦٠ – ١٩٦١ في فرع « التاريخ والآثار القديمة » .

البلاد من تدرّج المناخ بتدرّج المناطق صاعدةً من الساحل الى اعالي الجرود ، اصبحت وافرة الانتاج لمختلف الفواكه ، ومتنوّع الخضار .

هذه حالة الارض الطبيعية التي علينا ان نستثمرها . وقد يكون في درس التاريخ القديم ما يولينا العِبَر في هذا الاستثمار . ولهذا رأينا ان نستفيد اليوم من التاريخ اليوناني - الروماني ، فندرس كيف عرض القوم لمشكل الارض والزراعة وكيف عملوا على حلّه .

ولنشر ، باديء ذي بدء ، الى حلّ سطحي كثيرًا ما اخذ به بعض الكتّاب ، كلّما عرض لهم هذا البحث ، فأجابوا مسرعين بهذا الجواب الموجز: « كانت سوريّة أهراء رومة في العصور القديمة . »

وهو جواب لا نتردّد في الحكم عليه بانه يكتنفه الخطأ ، اذا ما أُلقي على إطلاقه .

فعلينا اذًا ان نستند الى الوثائق الراهنة في تعيين دور لبنان وسورية الزراعي في العصر اليوناني - الروماني وتعيين اهميّتها الاقتصادية الصحيحة . وذلك : ١ً – بدرس منتجاتها الزراعية ، و٢ً – بوصف طريقة تقسيم الارض فيها .

قلت ان سورية لم تكوّن اهراء رومة فتؤمن اعاشة عاصمة الامبراطورية ، كما يتوهّم البعض . ذلك اننا نعرف « اهراء رومة » على تتابع الحقب ، وهي الاراضي الايطالية اولاً ؛ ثم سهول صقلّية ؛ ثم افريقية بعد الحروب الفنيقية ؛ واخيرًا مصر .

ويرى ارباب الاختصاص في هذا الشأن ان افريقية ، في القرن الاول للمسيح ، كانت تورد الى رومة ثلث حاجتها من القمح . وكانت مصر تقوم بالثلث الثاني . اما الثلث الثالث فكانت تنتجه سهول ايطالية ، واسبانية ، وغالية[1] . ولا نرى ذكرًا لسورية في الصادرات السنوية المنظّمة في سبيل « الاعاشة المدنية » او اعاشة العاصمة ، الّا بعد عهد قسطنطين الكبير ، وبعد ان انتقل مركز الامبراطورية من رومة الى ضفاف البوسفور . عندئذٍ يصح الغرض ان ملّاحي الساحل الفنيقي كانوا ، ولا بدّ ، من جملة اولئك « الملّاحين

(1 Haywood, *An Economical Survey of Ancient Rome*, IV, *Africa*, p. 42-43

الشرقيين » الذين عهد اليهم قسطنطين في نقل القمح والزيت والخمر الى القسطنطينية[1]. اما قبل هذا العهد فلم تصدّر بلادنا القمح الى رومة وما وراءها من الولايات الغربيّة في الامبراطوريّة ، إلّا مرّة بعد مرّة بطريقة غير منظّمة ، كما سنرى .

واذًا فلم يكن دور بلادنا الزراعي ضروريًا في اقتصاديّات الامبراطورية الرومانية . ولكن من الانصاف ان نقدره حقّ قدره .

ان لم تصدّر هذه البلاد الى رومة بطريقة منظّمة ما يفيض من منتجاتها الزراعية ، لا يعني هذا ان المنتجات لم تفض عن حاجتها ، او ان الارض كانت تستثمر في إعالة اهلها فقط . فانّ قسماً مهماً من محصول الحبوب كان يُحفظ لاعاشة الجيش الروماني المقيم في سورية . وكان هذا الجيش يتألّف من اربع كتائب ، وما يعادلها من الجيوش المساعدة ، فيبلغ ٥٠,٠٠٠ جندي في زمن السلم . اما زمن الحروب المتتابعة ضدّ الفارثيين ، ثم ضدّ الساسانيين ، فكانت تأتي النجدات من الاناضول ، وإلّيرية ، وميزة ، وجرمانية ، اي من جميع الحدود التي كانت تتمرّن فيها الجيوش فتكتسب دربةً وشجاعة . وكان على البلاد الشامية ان تقوم باعاشة كل هذه الجيوش .

وفضلًا عن إعالة الجيوش، كانت الحبوب السورية تُصدَّر الى بعض الاسواق الخارجيّة ، لجودتها خاصّة لا لوفرتها . ومن المفيد ان نشير هنا الى اهم منتجات البلاد الطبيعية .

واولها القمح ، القمح الشامي الصلب المشهور . كانت مصر تستورد منه لتجدّد بذارها فتجوّد منتجاتها.[2]

ولم يكن نادرًا ان تستورد بعض الولايات الغربيـة من محصولات القمح

---

١) *Cod. Theod.*, XIII, 5, 7 ; XIV, 22. Cf. Walting, *Et. hist. sur les corporations prof.* II, p. 40 ; Rostovtzeff, P. W. sv. *Frumentum*, col. 129, 49.

٢) Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, *Syria*, p. 128, n. 1 ; John son, *ibid*, II, p. 1, n. 3 ; il s'agit de Pap. Lond. II, n° 256 = Wilcken u. Mitteis, *Chrestomathie*, n° 344.

الشامي في ازمان المجاعة ، او في سني قلة الانتاج في بلادها . وقد يكون من دلائل هذه العلاقات التجارية ، تلك الصفيحة الفضية المكتشفة في دير القمر ، والمشتملة على رسالة منقوشة من المدير يوليانوس الى ملّاحة مدينة أرل من بلاد غالية[1] . وقد كان لهؤلاء التجار الملّاحين محطّة في بيروت ، في اوائل القرن الثالث للمسيح[2] . فنستفيد من هذه الصفيحة المكتشفة انهم كانوا يشترون القمح وسائر بضائعهم في اسواق البلاد المنتجة نفسها .

والى العهد نفسه يرقى ، في ما يظهر ، رقيم مكتشف في بُصرى اسكي شام نقله اللازمان ثنسنتي وبوندينه وارسل اليَّ بنسختين منه الاب ماسكل (Mascle) المرشد الروحي لجيوش جبل الدروز . اما نصّ الرقيم فتقدمة موجزة باللغة اللاتينية نُقشت على هيكل من الحجر الكلسي :

Mercu
rio Aug (usto)
[S] acrum
[T] husdr .
[i] tani
Gen (io) Col (oniae)
s (uae) ⟨f⟩ (ecerunt)

وترجمتها :

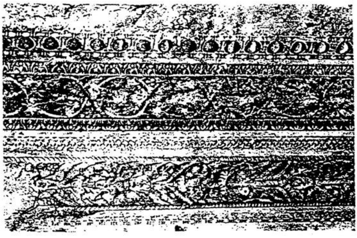
تقدمة (مرفوعة) الى مركور اغوسطوس .
اهل تيسدروس (رفعوا هذا الهيكل)
الى شفيع مستعمرتهم . »

واما رافعو الهيكل فهم بعثة اوفدتها مدينة تيسدروس من اعمال تونس — واسمها اليوم الجيم — وهي مدينة اشتهرت بتجارة القمح طول العهد الامبراطوري . ولا يخفى ان وجود هذه البعثة في منطقة تبعد عن بلادها ، بل عن ساحل البحر ، بعدَ بُصرى ، لا يمكن شرحه الا بالرغبة في مشترى القمح من حوران المعروف بخصبه وجودة غلاله . ومما يجدر بالذكر رفعهم الهيكل

١) *CIL*, III, 14652.
٢) A. Grenier, *An Econ. Survey*, III, p. 478 et n. 55

الإكرامي لمركور الجامع صفتين مهمتين في نظر البعثة التجارية . فهو شفيع اهل تيدروس ، اي حامي مدينتهم ، وهو اله التجارة الذي يشهد صفقات البيع والشراء . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء التجار رفعوا له هذا الهيكل بعد ان نجحت وفادتهم فاشتروا باسعار موافقة ما كانت تحتاج اليه مدينتهم من حبوب ، على اثر موسم ماحل بسبب ما كان يصيب افريقية الرومانية من جفاف .

ولا تنفرد الرقم الكتابية بالدلالة على محصولات بلادنا الزراعية . بل هناك عدد من الآثار المصوّرة والمنحوتة اشارت الى بعض هذه المحصولات الاشارات الصريحة . فرأينا منها القمح والعنب يُمثلان ، بل يمجدان ، في منقوشات بعلبك . فتتعرّش الكرمة على واجهة هيكل ديونيزوس ، وتلتفّ اغصانها على بنات البحر ، وصغار الآلهات ، بل تلتفّ على من تُرضع الجدي رمز الإله ، وترتفع سنبلة القمح مقرونة بورق الخشخاش ممثلة خصب السهول المقترن برمز الرقاد الابدي الذي يستولي على ادونيس ، ولا يرحم شبابه الجميل . (الرسم ١)



الرسم ١ – من نقوش الباب في هيكل ديونيزوس في بعلبك



الرسم ٢ — قطعة نقد ترقى الى القرن الثاني قبل المسيح وتمثّل الاله الدمشقي حدد حاملاً بيده اليسرى سنبلة ضخمة

وهذا جوبيتر البعلبكي نفسه يحتلّ محلّ الاله الشامي حَدَد ، إله الصواعق والامطار ، إله الخصب الذي ينمي الزروع . يشهد بذلك عدد من المعابد الصغيرة مقامة على اسم هذا الإله ، ولا تزال اطلالها الكثيرة مائلة في سهل البقاع ، وفي المرتفعات المحيطة به . ويشهد ايضاً قطعة من النقود مثلت سنبلة ضخمة من القمح وسط اعمدة الهيكل البعلبكي . ومن هذه الآثار قطعة نقد فضية ترقى الى العهد اليوناني ، وتمثّل الاله حَدَد الدمشقي حاملاً بيده اليسرى سنبلة ضخمة ، دالاً على انه هو الاله الذي يضمن للبلاد غلّتها المهمّة . (الرسم ٢)

ولقد كان للخمر الهه الخاصّ ، او شفيعه المحامي ، على الاقل في حوران وفي ما ندعوه اليوم جبل الدروز . وهو دوساروس . اكتُشف له تمثال جميل من الحجر البركاني . وألّفت الميتولوجية السورية حلقةً عن المعارك بينه وبين ليكورغ ، الاله الذي لا يشرب خمراً . وقد مُثّل قريباً منه تمثال برونزي ، لحمار يحمل خرجاً موضوعاً على ظهره دون جلّ . والى جنبه قطعة خزفية تمثّل جملاً محمّلاً . وقد يكون حمله من العنب الذي لا يزال ينقل ، على ظهور الجمال ، حتى ايامنا هذه ، فيشهد المسافر في شمالي سورية قطاراً لا نهاية له من الجمال الناقلة العنب من السفيري الى حلب مثلاً .

على ان مناطق سورية والساحل الفنيقي لم تكن تصدّر العنب في ما مضى ، بل كانت تهتمّ خاصة بتصدير الخمر . فكانت الجرار المملوءة في بيروت واللاذقية تصل حتى مرافئ البحر الاحمر . ولا يفسد محمولها بفضل ما كان فيه

من كمية الكحول القوية .[١] ومن المدن التي اشتهرت بخمورها حلبون ، قرب دمشق ، وأفامية ، وصور ، وغزة[٢] . وكذلك خمور اندرون ، او الاندرين ، في بادية الشام[٣] ، كانت تتجاوز شهرتها حدود هذه البلاد . ويقال الامر نفسه عن خمور ضفتي الفرات . وقد كشفت حفريات دورا - اوربوس ، على ضفة هذا النهر ، عن معاهدة يشير نصها الى ان احد رجال الجيش الروماني المعاون ، اقام منزله قريباً من مصب الخابور ، واشترى كرماً فيه ٦٠٠ كعب من العريش يبلغ ١٧٥ قطعة من الفضة[٤] .

واذاً فــان الكروم كانت منتشرة في انحاء البــلاد جميعها . حتى انّ الاباطرة اصدروا عدداً من القوانــين في سبيل حمايتها من الرعاة واللصوص خاصة.[٥] وقد يمكننا ان نتصور مظهر بعض هذه الكروم باستنادنا الى قطعة من الفسيفساء اكتشفت في شرشل من بلاد الجزائر ، في نيسان ١٩٢٥ ، ومثّلت بعض الاعمال الزراعية ، ومظاهر الحقول . وقد ارّخها الاستاذ جان بيرار بأول القرن الثالث للمسيح او منتصفه . (الرسمان ٣ و ٤)

نرى في القسم الاسفل من هذه الفسيفساء طريقتين لغرس الكروم والعناية بها : ١ً طريقة التعريش التي ترتفع بها اغصان الكرمة على صقالة عاليــة . ٢ً وطريقة الكروم المنبسطة او الواطئة . وقد كانت الطريقة الاولى واسعة الانتشار حول الدور في المناطق الشاميــة جميعها ، كما لا تزال نراها في القرى اللبنانية حتى يومنا . الا ان العناية كانت تبلغ فيهــا حدّ الاتقان ، في تلك الدارات او المنازل الفخمة التي لا يزال المسافر يرى اطلالها ماثلة في جنوبي غربي

---

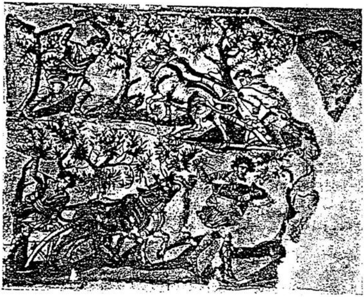
١) *Peripl. mar. Erythr.* 6, 49 = *Geogr. Lyr. Min.* I, 293

٢) Heichelheim, *An Econ. Survey.* IV, p. 138-140

٣) Noeldeke, *Sitzungsber* ; Vienne. CXL, 1899, VII, 31 s ; d'après Honigman, PW, *Syria*, col. 1677

٤) Pap. D. 101 ; *The Excavations at D. E., Report* VII-VIII, p. 433 ss.

٥) راجع في حماية كروم حوران : *GRR.* III, 1341 ؛ وكروم هيراپوليس فريجية : *Mon. As. M. Ant.*, IV, 297 ; Robert, *Et. Anatol.*, 104 ; apud Broughton, *An Econ. Survey.*, IV, p. 687



الرسم ٣ – قطعة من فسيفساء شرشل في الجزائر (القرن الثالث للمسيح)
تمثّل اعمال الحراثة والزرع

حلب وفي شمالها الشرقي ، فيشاهد الصفوف المتابعة من الركائز الحجرية تحيط بالماشي والممرّات او تحدّ الاملاك المتاخمة . والى جميع هذه الركائز كانت تستند الاعضاد الخشبية ، وعليها تعرّش اغصان الكرمة . نذكر منها خاصّة ما رأيناه في معزّ ، قرب الطريق الآخذة من حلب الى انطاكية. وهو سور بستان قديم، لا تزال الركائز الضخمة تحيط به . وله باب مزخرف بنقش هندسي بارز .

ولنعد الى فسيفساء شرشل. فترى فيها مشهداً للحراثة بين الزيتون. يقوم بها الثيران ، لأن الخيل لم تُتخذ لهذه الأعمال قبل القرون الوسطى. ويشاهد في اعلى الرسم ما يُعرف « بالشقّ » وهي الحراثة الخريفية ، فترى فيها الفلّاح يرتمي بثقله على المحراث ليعمّق الشق في الأرض ، بينا نرى في المشهد الأسفل ، نوعاً ثانياً



الرسم ٤ – قطعة من فسيفساء شرشل تمثّل بعض اعمال الكرمة

من الحراثة ، ينصح به المزارعون الرومانيون ، بناء على قول ڤارون وبلينوس ، بعد القاء البذور. ولهذا مثلت الفسيفساء الزارعَ يتقدّم المحراث .

٥

ذكّرتنا فسيفساء شرشل ، اذ صوّرت لنا الحراثة بين الزيتون ، بما لا نزال نشاهده في يومنا هذا ، في حقول الزيتون الممتدّة غربي بيروت . بيد ان زيت الزيتون لم يكن يصدّر من هذه البلاد في العصر الذي يهمّنا امره . ذلك ان الزيت اللبناني والسوري كان لا يبلغ جودةَ زيت ايطالية او اسبانية ، فكان عاجزًا عن مزاحمتها في الاسواق الرومانية[1] .

1) Heichelheim, *op. cit.*, p. 136-137

بيد ان بلادنا كانت تصدّر الى رومة كثيرًا من النباتات العقاقيرية والعطرية مع مستحضراتها كالناردين ، والبلسم ، والمرّ ، والميعة[1] وكذلك كانت تصدّر ، شأنها في العصور الفنيقية ، الاصباغ المستخرجة من الصنوبر والسرو ، ومن اشجار التزيينت في منطقة دمشق.[2] ويجب الّا ننسى ، في سلسلة الصادرات هذه ، خشب البناء المقطوع من غابات لبنان . وسنعود الى الكلام على هذه الغابات .

ولم تكن اكثر هذه المنتجات من نبات بلادنا الطبيعي . انما كانت تغرس ويُعتنى بها وفقًا لطرق دقيقة منظّمة ومدوّنة منذ العصر الهليني . ولا يخفى ان الرومانيين اتخذوا مبادئ الفنّ الزراعي عن مزارعي الشرقيين . وذلك انه بعد ان تغلبت رومة على قرطاجة ، شاءت ان تستفيد من معارفها ، فأمر مجلس الشيوخ الروماني ، ان يُنقل الى اللغة اللاتينية مؤلّف ماغون الشهير في الزراعة ، الذي كُتبَ اولًا على الأرجح باللغة الفنيقية - القرطاجية ، ثم نُقل الى اليونانية ، ومنها الى اللاتينية.[3] وكذلك استفاد الرومانيون من جميع الاساليب المعروفة في الزراعة اليونانية .

ويمكن القول نفسه عن الفواكه والثمار الشامية التي جرّب الرومانيون ان ينقلوا غروسها الى بلادهم ، فيبلّدوها . نذكر منها الخوخ الدمشقي[4] ، ونوعين من التين ، والدراقن ، والمشمش ، وقد لا يكون هذا اصيلًا في الارض الشامية الّا انه كان متبلّدًا فيها في هذا العصر[5] ؛ والفستق الذي نقل غرسته من بلاد الشام ل. ڤيتلّوس ، والد الامبراطور المعروف بهذا الاسم ، عندما كان واليًا على سورية على عهد طيباريوس[6] . ونذكر اخيرًا نوعًا من الفجل السوري وآخر من

١) Scheffer-Boichorst, p. 529

٢) Heichelheim, p. 134-135

٣) Columelle, *De agricultura*.

٤) Pline, *H. N.*, XIII, 10, 51

٥) Friedlaender, *Sittengesch.*, p. 307, d'après Helin, *Kulturpflanzen u. Haustiere in ihren Uebergang*, (1870 ; 7ᵉ éd. 1910).

٦) Helin, p. 416

البصل الممتاز دُعي في رومة « إشالوت » (échalotte) وهي نسبة محرّفة لعسقلان ، اصل منبته.[١]

ونقل الرومانيون كذلك الى ايطالية فنّ غرس الاشجار المثمرة وتقليمها ، مع مبادئ زراعة الخضراوات . وقد كان معروفاً عند القدماء . ان فنّ البساتين وما يقتضيه من عناية دائمة تظهر خاصة بالريّ المنظّم انما كان من خصائص بلادنا ولهذا نُقل عن بلينوس : *Syria in hortos operosissima ; unde venit in proverbium Graecis : Multa Syrorum opera.*

ومعناه : «ان سورية تمتاز اشدّ الاهتمام بالاعتناء ببساتينها حتى ضُرب في ذلك المثل عند اليونان فقيل: ما اعظم اعمال السوريين ! »[٢]

وعلى هذا فقد كان اليونانيون اذا ما تأملوا بساتين صور وصيدون ، يفكّرون باعمال هركول . كما نتكلم نحن اليوم عن اعمال الرومانيين ، اذا ما وقفنا على آثار القناطر والاسداد القديمة . وكان من فضل هذه الاعمال ان ازدهرت ازدهاراً عجيباً مظاهر الزراعة التي خُصّت بها بلادنا منذ العصور القديمة . وكما اخذ عنّا الرومانيون زراعة البساتين ، وتعزيق الارض ، واستعمال السماد ، وتنظيم الريّ ، وكل ما يتعلّق بنظرية الزراعة العلمية ، افادونا بمنشآتهم البنائية في سبيل تعزيز الزراعة . حتى ان ارباب السلطة في عصرنا الحاضر ، اذا ما ارادوا توسيع المناطق الزراعية المرويّة في سورية ، لم يكن عليهم الّا ان يرمّموا قنوات السلمية مثلاً ، او ان يرفعوا السدّ الروماني في بحيرة حمص .

وغنيّ عن البيان ان الاساليب الزراعية لم تكن تُطبّق على الطريقة نفسها في مناطق تختلف فيها الاراضي اختلافاً بيّناً من حيث التكوين ، والموقع ، والارتفاع . وبسبب هذه الاوضاع الطبيعية وبعض العوامل التاريخية ، قُسمت الاراضي طبقات متعدّدة . على انه يجب القول ان الفرق بين الاراضي الحاقّة

١) Pline, *H.N.*, XX, 16, 23 ; cf. Scheffer-Boichorst, p. 523 et Friedlaender, p. 307

٢) Pline, *H. N.*, XX, 16, 33 ; Scheffer-Boichorst, p. 523

والاراضي المرويّة ليس تامًا بارزًا كما هو في مصر مثلًا. ذلك ان بلادنا تستفيد من مناخ معتدل لقربها من البحر، ثم لما تفيدها سلسلة الجبال اللبنانية وسلسلة الامانوس من ايقاف الغيوم، فتكثيفها، فالعمل على هطول الامطار. ولهذا كانت انواع الاراضي فيها تشبه المعروف في آسية الصغرى وافريقية الرومانية:

١° مناطق الكلإ او المراعي ومزدرعات الحبوب. وهي ممتلكات فسيحة في الجبال والمواقع البعيدة.

٢° مناطق المزدرعات المتنوّعة وهي من نوع الملكية الوسطى.

٣° مناطق الخضراوات او المزدرعات الصناعية، تقع قريباً من المدن والمحالّ المأهولة. ولنقل كلمة الآن عن الممتلكات الفسيحة والوسطى:

كل ارض من الممتلكات الفسيحة في سورية الرومانية ارث الملوك والآلهة.

كان الملك في العهد الهيليني يملك الاراضي الواسعة بفضل حقوق الفاتح الغازي، او بما كان يقوم به من نزع ممتلكات اعدائه، او بفضل حقه الملكي فقط. وكان، على الغالب، يسهر بنفسه على منتجات هذه الاراضي وكان اكثر الملوك والامراء، في هذه البلاد، من عمال رومة او عملائها، امثال ارخيلاوس القبادوقي او هيرودس الجليلي، يستحقّون عن جدارة ما يقوله شيشرون مادحاً ديجوتار ملك غلطية: « *diligentissimus agricola et pecuarius* » ومعناه: « اوفر الناس اهتماماً بالزراعة والمواشي. »[1]

تشهد بذلك مغروسات البلسم التي استقدمها هيرودس من جزيرة العرب وبلّدها في سهل أريحا الحارّ المناخ. وكثيرًا ما قام عبيد الملك ومواليه بتجربات زراعية من هذا النوع.

ويجدر بنا ان نذكر، بعد الممتلكات الملكية والاميرية، املاك الهياكل والمعابد. وقد كانت متسعة الرقعة على عهد الاحتلال الروماني. وكان الكاهن الأعظم، المعيَّن على مدى عمره، يهتمّ بادارتها واستغلالها. وكثيرًا ما كانت هذه المهنة وراثية، فيقوم ابناء الاسرة الواحدة، خلفاً عن سلف، على ادارة

(1 *Pro Dejot.*, 27. Cf. Broughton, *An Econ. Survey*, IV, *Asia M.*, p. 685

الارض المقدّسة ، كما كانت الحال في هيرابوليس - بنبيكه ، او منبج الحالية ، بين حلب والفرات. وقد ورد عن حمص القديمة ، او حمص، انها بعد ان تخلّصت من ملكية اسرة سميجرامس، وكانوا من العرب المتحضرين، ظلّت في ايدي كهّانها. وكذلك القول عن املاك روساء الأرباع في الجبل المقدس حرمون ، او جبل الشيخ ؛ وعن املاك بوليمون ، وليزانياس ، وزينودور ، اصحاب كلسيس او عنجر في البقاع ، الذين نقشوا القابهم على نقودهم فسمّى كلّ نفسه « رئيس ربع وكاهناً اعظم.»[1]

وفي غير بلادنا من المناطق الرومانية ، كبلاد الاناضول ، وافريقية مثلاً ، بيعت املاك الامراء والملوك ، واملاك الهياكل باسم الشعب الروماني . فسهل لاغنياء الرومانيين من ارباب الرساميل ، واعضاء مجلس الشيوخ ، أن يتملكوا الاراضي الواسعة. وانتقلت نهائياً الى ملك الامبراطور الخاصّ. اما في بلادنا ، اذا استثنينا ما زعمه البعض من وجود ملكية امبراطورية في الجليل الاعلى[2] ، فاننا لا نرى شيئاً من هذا النوع على عهد الأمبراطورية الأولى . بيد انه كان في بلادنا نوع من الحجز او الاحتكار موضوعاً على بعض الاراضي . يشهد بذلك اكثر من مائة رقيم محفورة على صخور الجبل اللبناني ، من شمالي غربي الهرمل الى المرتفعات القائمة فوق زحلة . وهي كتابات مبهمة في دلالتها على هذا الحق الامبراطوري ، وليس من اختلاف في نصوصها ، بل تذكر جميعها حقّ الامبراطور وتردفه ببعض ارقام. وقد حلّ ارنست رينان واحدة او اثنتين منها رُقّتا دون اختصار. وهذا نصّها :

Imperatoris Hadriani Augusti-Arborum Genera quattuor, cetera privata.

ومعناه : « ان اربعة انواع من الشجر تخصّ الامبراطور هدريانوس – اغوسطوس . اما سائر الانواع فلكية خاصّة.»[3]

1) W. Wroth Br. Muslins, *Galatia, Cappad. a. Syria*, pl. XXIII, 11 ss. et pp. 279 sqq.

2) Jos. *Vita*, 13, 71 ; d'après Rostowzeff, *Soc. a. Econ. History*, p. 568, n. 30

3) Renan, *Mission de Phénicie*, p. 253 ss. et 858 B add. à la p. 279=CIL,III

والارقام التي تتبع هذا النصّ تدلّ ، على الأرجح ، على عدد الاشجار المحفوظة او المحتكرة في المنطقة .

بقي السؤال عن هذه الانواع الاربعة ما هي ؟

يستند البعض الى نصّ ورد عن ڤيجيس[1] ، فيستنتجون ان انواع الشجر الاربعة المحتكرة لملك السلطة الامبراطورية انما كانت الاشجار الصالحة لصنع المراكب وهي : الشربين ، والصنوبر ، والسرو ، والعرعر . اما في لبنان فيجب الّا ننسى شجر الأرز .

وقد امكننا ، بمعاونة الاب جلابير ، ان نستفيد من رقيم محفوظ في متحف الجامعة الاميركية ، فنلحق هذا الاحتكار بعملية واسعة النطاق قام بها الامبراطور هدريانوس لتحديد مناطق الغابات والمراعي.[2]

اما تاريخ هذه الرُّقُم الحجرية فقد استخرجناه من درس حجر ضخم منحوت على شكل الموشور ، ومنصوب قريباً من اللقلوق ، في عقبة الجبل المؤدية الى اليمونة فبعلبك . قادنا اليه احد اصدقاء الارض اللبنانية ، اسعد بك يونس ، فأمكننا ان نقرأ فيه :

على احدى جهاته : *Imp(eratoris) Had(riani) Aug(usti) vic (ies)* ou *vic(ennalibus)*

ومعناه : « من الامبراطور هدريانوس الملك (اغوسطوس) عشرين مرّة »

او « في السنة العشرين لملك الامبراطور هدريانوس . »

وعلى الثانية : *C. Umbrius*

Proc(urator) Aug(usti)

ومعناه : ك . أومبريوس

وكيل الامبراطور

وعلى الثالثة : *Imp(eratoris)*

it(erum) s(alutati) p(osuit)

« من الامبراطور المنادى به أمبراطورًا للمرة الثانية » .

---

١) *Ex cupresso orgo et pinu domestica, sive silvestri larice et abiete praecipue liburna contexitur.* (Veg. V, 4)

٢) راجع *MFO*, IV, 1910, p. 209-215 ; cf. Rostowzeff, *Klio*, 1911. p. 387

واذًا فان الرقيم يرقى الى السنة التاسعة عشرة من ملك الامبراطور هدريانوس ، وهي السنة التي نودي به فيها امبراطورًا للمرة الثانية ، وذلك بعد ان قُمعت الثورة اليهودية الثانية ، اي في السنة ١٣٤ م.[١]

وان تكن رُقُم هدريانوس — التي يشبّهها رينان ، في عبثه ، ببطاقات زيارة تركها الامبراطور في انحاء لبنان — هي الأثر الوحيد في الدلالة على الممتلكات الاميرية في بلادنا ، على عهد الامبراطورية الاولى ، فانه مما لا شكّ فيه ان اباطرة القسطنطينية من القرن الرابع الى السادس كان لهم الاملاك الفسيحة يديرونها بانفسهم او بواسطة موظفي « الممتلكات الخاصة » .

وكانت هذه الأملاك الامبراطورية تجاور ، في ذاك العهد ، كثيرًا من الاملاك الشاسعة نتجت من ضمّ عدة ممتلكات خاصّة قام بها الفلّاحون مجتمعين حول سيّد قوي راغبين في ان يعينهم ويحميهم . من هذه الممتلكات ثروة ذاك الشيخ الانطاكي الذي يصفه القديس يوحنا فم الذهب ، في اواخر القرن الرابع ، فيقول كان له الاراضي الفسيحة فيها من عشرة الى عشرين منزلًا ، مع القصور او الدارات والحمّامات الخاصّة ، وفيها من الف الى الفي عبد.[٢] و١٠ آلاف من الموالي[٣] .

على ان استثمار الاراضي بواسطة العبيد كان امرًا نادر الوقوع في سورية الرومانية . ولم يكن يُرى هناك الّا نادرًا قصور او دارات شبيهة بقصور كمبانية الجامعة بين المتنزّهات ومراكز الاستثمار الزراعي ، والتي كان يشتغل فيها مئات

١) اطلب ، في تأريخ هذه الحادثة ، W. Weber, *Unteruebungen z. Gesch. des Kaisers Hadrianus*, 1907, p. 180, n. 643. d'après v. Rhoden, PW, I, 514; Weber, p. 276, n. 1015. Cf. aussi Cagnat, *Cours d'épigr. lat.*, p. 196.
ويجب القول ان ك . أومبريوس اوكايوس أومبريوس هذا لم يذكر في *Pros. imp. rom.*, III بل هناك ذكر لرجل اسمه أومبريوس پريئوس كان ملّاكًا في ليغورية على عهد ترايانوس (*ibid.*, p. 468, n. 596).

٢) *In Mt.*, 63, 4. Cf. *Vita parvae Melaniae, Hist. Laus.*, 109 = PG., XXXIV, 1230

٣) Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, p. 165, n. 16

العبيد ، بعضهم مقيّدون بسلاسلهم.[1]

واذا جاز لنا ان نذكر شبهاً بعيداً لبعض هذه الدارات الواقعة على شاطئ البحر ، فاننا نذكر ما كشفته الحفريات مؤخراً من آثار دارة في الجناح من رمال بيروت. وقد كان من نصيب المتحف الوطني اللبناني ان يحتفظ بقطع الفسيفساء التي كانت تزينها.

وفي الداخلية آثار لدارات سورية ، كانت تُقام عادة في منطقة يحصنها سور يدفع عنها غارات البدو. واننا نرى اكثرها منتشرة في شمالي سورية بين حماه وإدلب ، وحلب ، وانطاكية. واشهرها دارات جرادة على ١٥ كيلومتراً شمالي معرّة النعمان ، على الطريق من حماه الى حلب. (الرسم ٥)



الرسم ٥ — بعض آثار دارات جرادة القديمة في الغرب من معرة النعمان

وشبيهةٌ بها الدارات القائمة آثارها في ناحية البارة من جبل الزاوية. نرى في

1) Rostowzeff, *Roem. Mitt.* XXVI, 1911, *Die hellenist-roem. Architectur-landschfat*, pl. IX, et p. 94

احداها سوراً يحيط بعددٍ من البنايات. منها منزل السكن ازدانت واجهته بعدد من الاعمدة الرشيقة في رواق عالٍ. والى جنبه الاصطبل. وفي جهة ثالثة بنايات المرافق، وبيت الخولي او الوكيل. اما الجهة الرابعة ففيها البستان، ولا تزال تُرى فيه معرّشات الكرم على الركائز.

وقد تساءل العلماء، امام هذه الآثار الفخمة في البارة وسرجيلية: ألم تكن منازل صيفية لكبار المثرين في انطاكية ؟

وان لنا في بعض النصوص القديمة اوصافاً لمساكن زراعية واقعة وسط الحقول. كانت تُدعى في العهد الهيليني «باريس». وهي لفظة محرَّفة عن اسم ساميّ قديم دخل اللغة اليونانية، ومعناه «البيت المتين» او «المنيع». ثم تحرَّف الاسم من جديد فصار «برغوس» باليونانية، واستخرج منه الاسم اللاتيني «تيترا برجيوم» ومعناه «البيت المربّع الابراج». وواضح ان الاصل السامي لكل هذه الكلمات هو ما يفيد معنى «البرج» بالعربية.

هذه القصور البرجية، او المربّعة الابراج، كانت على انتشار يُذكر في سهول سورية الرومانية. وعنها اخذ الامويّون انشاء قصورهم في الصحراء او «براديم» المشهورة من امثال المشتى وقصر الحير وغيرهما.

على اننا لا نرى في الوثائق المعروفة ما يفيدنا وصفاً دقيقاً لهذه القصور المربّعة الابراج التي كان يسكنها كبار الملّاكين في سورية. فاضطررنا الى الاخذ بقطعة فسيفساء تمثّل قصراً من هذا النوع في قرطاجة. وهي قطعة معروفة بفسيفساء السيد يوليوس. (الرسم ٦)

نرى على واجهتها برجين يرتفعان من الجانبين. ونتصوَّر برجين كذلك في الجهة المؤازية. اما الرواق الاعلى فعهدنا به في كثير من الابنية الشرقية، كقصر قطسيفون مثلاً. واذا ما اجتاز الزائر الرتاج العالي المنحني القوس، وجد نفسه في ساحة داخلية فسيحة، قامت حولها البنايات التي لا يرى منها في الصورة الّا سقوفها ذات القباب. ونتخيَّل بينها الحمام الخاصّ بموقده وغرفه الباردة والفاترة.

وعلى الرغم من حالة الفسيفساء السيئة، يميّز الناظر عدة مشاهد تمثل اعمالاً زراعية تختلف باختلاف الفصول. فيرى، الى اعلى الزاوية من الشمال، جمع الزيتون في فصل

الشتاء ، ثم خادماً حاملاً اثنتين من البطّ البرّي . والى اليمين يظهر راعٍ مع كلبه ، ووراءه في سطح بعيد ، كوخ من الاغصان المغطّاة بالطين ينام فيه الفلّاحون . وفي اسفل الفسيفساء ، من جهة الشمال ، وسط الازهار ، تظهر خادمة تقدم عقداً الى ربّة المنزل . ويقابلها الى اليمين صاحب الدار جالساً ، يستقبل رسولاً حاملاً اليه إوزّتين هدية من احد الجيران . نعرف ذلك من الرقّ المنشور في يد الرسول ، وقد تضمن كتاب الاهداء ، وظهر عليه اسم المُرسل اليه : IV[l(io)] dom(ino) « السيد يوليوس » . وفي الزاوية الاخيرة ، من جهة اليمين ، خادم يحمل سلّة فيها فواكه الخريف .

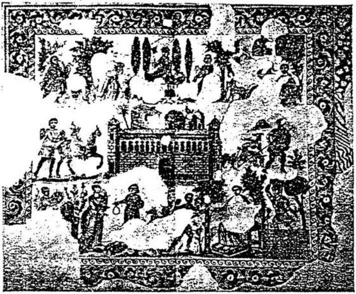
اما الذين كانوا يشتغلون في هذه الاراضي فمن العملة الأحرار ، لا العبيد . انما كانوا فقراء لا يكادون يتميّزون في شيء عن فلّاحي سورية الداخلية في يومنا هذا وكان يديرهم ويدبّرهم ذوو الثقة من رجال المُلّاك ، سيّد الأرض ، مواليَّ كانوا او عبيداً . وكان للامبراطور وكلاء على املاكه الخاصّة ، كما تقدّم في ذكر كايوس أومبريوس الذي نقش اسمه على صخر القلوق .

وكان لصاحب الأرض السلطة المطلقة على املاكه وعلى من يشتغل فيها . كما كانت سلطة الاغوات على اراضيهم وفلّاحيهم ، الى الأمس ، في سورية الداخلية . وقد كُشف في جُبَيل - بُطُم ، على عشرين كيلومتراً شمالي صور ، حجر تذكاري لإقامة حاجز حول بركة القرية تنفيذاً لأمر حاكم المنطقة او امر الامبراطور . اما ما يهمّنا فهو نصّ المحضر الذي يشير الى بناء الحاجز ، قال :

« وفقاً للقرار المقدّس ، أُتقنت البركة بحاجز وأُصلحت على عهد المُلّاك كلوديوس پينوس ، بعناية نرسيس ابن . . . وعبد پينوس المذكور .» (١)

وجديرٌ بالذكر ان مَن يُشاد باسمه في هذا الرقيم ليس الامبراطور ، ولا الوالي ، بل المُلّاك صاحب الأرض .

(١ R. Mouterde, *MUSJ*, XVI, 1931, p. 95, n° 10.



الرسم ٦ – قطعة من الفسيفساء تمثّل قصر السيد يوليوس الروماني في قرطاجة

هذا ما امكننا جمعه في وصف الحالة الزراعية في سورية ولبنان على العهد الروماني . وهو مشهد ناقص ، يفتقر الى الكثير من المعلومات في اظهار ما كان يفيده الملّاكون والمزارعون ، مثلاً ، من حالة الأمن العام ، من « السلم الروماني » المشهور ، ومن ضمانة الاستقرار في الملكية ، الناجمة من تأسيس اعمال المساحة والتحديد الرسمية منذ عهد السلوقيين .

بيد ان هذا المشهد ، على ما فيه من النقص ، يبدو جزيل الفائدة . اذ يظهر لنا ما امتازت به الزراعة من ازدهار في بلادنا اذ ذاك . وقد لا نخطئ اذا قلنا ان فلاح ذاك العهد كان اوفر حريّة ، فاكثر انتاجاً ، فأيسر حياةً من الفلّاح السوري في يومنا هذا . كان له كرمه الخاصّ وزيتونه الخاصّ . وكان

الملّاكون يهتمون بازدهار الزراعة ، وتحسين حالة المزارعين اكثر من اهتمامهم بربح الأموال التي يسلفونها فلّاحيهم . فلا عجب اذًا ان يكون سكان هذه البلاد قد بلغوا اذ ذاك ، وفقًا لادقّ التخمينات ، ضعف ما يبلغونه اليوم في المنطقة نفسها . وانّ مَن شاهد ، في سهول سورية الشمالية خاصةً ، بقايا الآبار والفجّارات ، واطلال معاصر الزيت والخمر ، وآثار المزارع والكنائس الدارسة ، لا يناله شكّ في صحة هذا القول .

وقد يعود لبنان وسورية الى ازدهارهما الزراعي فيعيشان في رخاء على شريطة ان تتعاون السلطات العامّة وكبار الملّاكين في عمل مخلص مشترك .



المساجد والمشاعر

في العصر الجاهلي

من آثار الاب لامنس

القسم الاول

٢

قلنا ، في البحث الاول من هذا القسم ، ان جميع الآيات التي تذكر « المساجد » بصيغة الجمع ، تشير الى منطقة الحرم في العهد السابق لفتح مكة. هذا ما يُستنتج من مقابلة النصوص في القرآن ، ومن الجدل بين النبي ومشركي قُريش ، ارباب هذه « المساجد » اذ ذاك. ولا يخفى ان مظاهر هذا الجدل ترقى الى زمن وجود النبي في المدينة حيث كان يُعدّ الحملة على مكة ، ويُعدّ رجاله من مهاجرين وانصار للقيام بهذه الحملة. فاذا أيّدنا ذلك ، فلندع المحدّثين والمفسّرين يتخيّلون وجود مسجد وحيد ، هو الكعبة ، يدعم نظريّتهم في التوحيد الابراهيمي. بيد ان هذه النظرية تنسينا سائر الذكريات الدينية في مكة المشركة. وهي عديدة مهمّة في قاعدة تِهامة ، وكثيرًا ما نازعت « البيت العتيق » في التجلّة والإكرام.

وقد لا نخطئ اذا شبّهنا مكة باورشليم من جهة انها كانت تحوي عدة معابد او اماكن مقدّسة. فهناك « الأنصاب » و« الاركان » و« المنازل » و« المواقف » و« الجمرات ». وكلّها مذكورة بصيغة الجمع في النصوص القديمة. ولا يعزّ استعمال هذه الصيغة القولُ بانها أُجريت مجرى صيغة « المساجد » في القرآن. وهذا زهير بن ابي سلمى يُقسم « بالمنازل من مِنى »[1] . ومثله الشاعر الطائي قيس بن جروة القائل :

وأُقسم جهرًا بالمنازل من مِنى

(1 Ahlwardt, *Ancient poets* 14,6

وليس اكثر ورودًا في أيمان الجاهليين من القَسَم بالأنصاب المشربة بدماء الضحايا ، على نحو قول الشاعر :

فأقسم بالذي قد كان ربّي ، وأنصاب لدى الجمرات مغر .[1]

أوَ لا يدلّ هذا على تعدّد تلك الأنصاب والمواقف المقدّسة التي كان يُذبح عليها ويُضحّى. ويسير ذكرها الديني في الشعر. ولا شكّ في ان تلك الجلبة الغالبة على هذه الحفلات المُشركة ، وما كانت تنتج من فوضى واضطراب اثارت اشمئزاز النبي فمثّلت له صورة القيامة « يومَ يخرجون من الاجداثِ سراعاً ، كأنهم الى نصب يوفضون.»[2]

وكان المؤمنون بهذه الانصاب يقومون بالطواف الطقسي حول الجمرات[3] ، ويرمونها ، اي يضيفون اليها حجرًا او اكثر ، كما كانوا يرمون قبور جدودهم المشهورين.[4] وبديهيٌ ان الأيمان بها يدل على صفتها الدينيَّة ، كما ان ورودها بصيغة الجمع يشير الى تعدّدها.[5] وسنذكر ما يؤيد قولنا من اسانيد ، على رغم قلّة معلوماتنا بشأن الميتولوجية القرشية خاصة والحجازية عامّة .

III

ولا بدَّ من القول اولًا ان لا وجه للشبه بين الكعبة والهياكل الدينية المعروفة ، بل لا تجوز المقابلة بينها وبين البناء العادي . ان في ترانا وضياعنا كثيرًا من المعابد الحقيرة في مساحتها وهندستها. الّا انه يظلّ لها صفة الفن البنائي.

---

1) ابن هشام: السيرة ، ٥٢٤ – وهو لا يضمن صحة نسبة القطعة . انما يكفيه ان تُعدّ « من اصحّ اشعار اهل بدر ». ولا شكّ في انها صُنعت – ان كانت مصنوعة – على مثال مقاطع جاهلية أُدخل فيها تعابير ذات صبغة قديمة ، كما في استعمال « كان » بصيغة الماضي حيث يقتضي المقام الحاضر. ولا يخفى ان القرآن يستعمل احيانًا هذه الظاهرة التركيبية بوضع الماضي مكان الحاضر .

2) القرآن ٧٠ [المعارج] ٤٣

3) Welhausen, *Reste*, 111

4) راجع بحثنا في « الحجارة المؤلهة » في « المشرق » ٣٧ [١٩٣٩]

5) قابل بما في السيرة ، ١٧٢ ، من ابيات منحولة الى ابي طالب.

اما الكعبة فلم تكن على شيء من ذلك. وقد بقيت مدة طويلة دون سقف. فهي اشبه بجدار منها ببناء، بجدار جعل إطارًا للحجر الأسود. وكان هذا الحجر اهمّ معبودات قريش، ولكنه لم يكن وحيدها[1]. ولعلّه كان قطعةً باقية من الحجر المؤلّه القديم، من «بيت» القبيلة النقّال، المحمول في الحفلات والطوافات، كما هو الحال في «المَسْجِدا» النبطيّة. وكانت الكعبة، مع الحجر الملتصق بها — وقد يُسمّى ايضًا الجدار والجَدْر[2] — تكوّن مركز هذه الحفلات الدينيّة في مكة. حتى اصبح كل ما فيها موضوعًا للإكرام والعبادة، على نحو القول المأثور: «ليس من البيت شيء مهجور»، اي «ليس من اركانه شيء مهجور».[3] وعلى هذا، رأينا اتقياء المشركين، قبل الإصلاح الذي قام به النبي، يمرّون شفاههم وايديهم على جهات الكعبة الاربع، وعلى كل ما برز من الحجارة المثبتة في الجدران او الملقاة في الزوايا، والتي تركتها رموزًا وآثارًا الهية اجيالُ القدماء من سكّان مكة.

III

هل حُصّت الكعبة دائمًا بهذه الميزة الرئيسية في تاريخ مكة الديني؟

اقرّ بأني لا ارى برهانًا كافيًا لتأييد هذه الرئاسة، على الرغم ممّا يبذله التفسير الرسمي من جهود في هذا السبيل، بل بسبب هذه الجهود المحاولة اقرار الاعتقاد العام بالرئاسة المذكورة. وواضحٌ ان منسكَي الصفا والمروة قاوما مدة طويلة كل الحملات التي وُجّهت الى المناسك القرشية القديمة. ذلك انهما كانا يحتلّان مركزًا مهمًّا في تاريخ المدينة. ولعلّهما نازعا الكعبة تأثيرها[4]، بل لعلّهما

---

١) راجع، في ما خصّ عصرنا الحاضر، Burckhardt, *Voyages*, I, 183; Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 16

٢) البخاري: الصحيح (Krehl) ١: ٤٠٠، ٤٠١

٣) ابن حنبل: المسند ٤: ٩٤–٩٥، ٩٨؛ البخاري: الصحيح ١: ٤٠٦. وهي اقوال كثيرًا ما نُسبت الى معاوية. على انها تمثّل، دون شك، العقيدة القرشية القديمة. وراجع في عبادة «الاركان»، بحثنا في «الحجارة المؤلّهة».

٤) كما نازعها هذا التأثير منسك عرفة، راجع Welhausen, *Reste*, 92

تفوّقا عليها مدة ، كما كانا يرتفعان فوقها في المركز الجغرافي. وقد يظهر ان بعض المؤمنين الغُيُر من غير القرشيين ، في حاشية النبي ، كانوا يرغبون في تجريد هذين المنسَكَين الوثنيَّين من صفتهما الدينية[1] على الاقل ، ان لم يمكن تخريبهما تماماً[2]. ذلك ان الطواف[3] بهما ، في الإسلام ، كان يولي اولئك المؤمنين شكوكاً مشروعة ، اذ انّ الطواف يفرض وجود « بيت » اي حجر موّله ، وبالتالي منسك منافس ا « بيت الله » اي الكعبة . بيد ان النبي رأى من الحكمة ان يتردّد في النزول على رغبة أنصاره المؤمنين ، اذ انّ قومه من قريش لم يكونوا مستعدّين بعد لمثل هذا الإصلاح ، فانتظر مدة ، ثم ترك الأمر لله ، ليتدخّل بسلطته العالية ، ويقدّم عليهما « البيت » ، على أنهما من شعائر الله . « ان الصفا والمروة من شعائر الله . » . فمن حجّ البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما. ومن تطوّع خيرًا فان الله شاكر عليم . »[4]

وهكذا لم ينفر زعماء قريش ، وقد كان لبعضهم نوع من السدانة على منسكي الصفا والمروة[5] ، ولم يكونوا قد أشربوا بعد روح التوحيد المطلق الذي جاء به النبي .

III

اذا ما غربل النقدُ بعضَ نصوص مجاميع الصحيح ، كصحيح مسلم مثلًا ، توّصل الى نتائج غريبة بشأن نظريّة المسجد الوحيد . من ذلك ان في منسكي الصفا والمروة كان يقوم الناس بالشعائر نفسها التي يقومون بها في البيت « العتيق » .

---

١) كما رغبوا في إلغاء العُمرة ، راجع مسلم : الصحيح ، ١ : ٤٦٨

٢) الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ٢ : ١٢١

٣) قد يُبدل « بالطواف » كلمة « سعي » على انها اخف وطأة ؛ الترمذي ١ : ١٨١ ؛ مسلم ١ : ٤٨٩–٤٩٠ ؛ وقد يستعملون في الكلام عن الصفا والمروة « طاف به » و« طاف بين » ؛ النسائي : السُنَن ٢ : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧

٤) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢

٥) ورد ذكرهما في شعر منحول مطبوع على غرار الشعر الجاهلي اورده ابن هشام على انه معاصر للهجرة ، السيرة ١٧٢ ، ٢١٧

فكانوا يطوفون سبع مرات . ويقصّون شعورهم ، ويذبحون الاضاحي[١] .

اما الطواف بالصفا والمروة ، فقد ظل مألوفاً غير محظور في الاسلام بدليل الآية السابقة ؛ واما قصّ الشعر فقد قام به النبي نفسه[٢] ؛ واما التضحية ففريضة نراها أهملت شيئاً فشيئاً في الكعبة[٣] . فهل خاف قدماء القرشيين ان يحوّلوا مسالخاً فناء البيت حيث كان لكل قوم منهم نادٍ معروف . اما بعد الفتح ، فغدا الناس يضحّون حول البيت ، وحول الصفا والمروة . بيد ان التقليد والتفسير الرسميّين رأيا في إشراك الصفا والمروة مع « البيت » ما يمسّ نظرية توحيد المعبد الابراهيمي فاخذا بالجهود العديدة المتتابعة في سبيل الحطّ من خطر المنسكين القرشيّين المشركين . ولما لم يكن ممكناً انكار الشعائر التي قام به النبي نفسه في الصفا والمروة ، اخذ ارباب الحديث ، بواسطة طرقهم المعروفة من تعديد « الروايات » في إدخال بعض التحفّظات ، يعملون على تقليل اهمية هذه الشعائر . فهم تارةً يبدلون « بالطواف » « السعي »[٤] المتعلّق اصلاً بالعُمرة ، وهو اخفّ خطراً في نظرهم ؛ وحيناً يحوّلون الى طواف واحد الطوافات السبعة التي قام بها النبي[٥] . على ان همّهم الأكبر ان يجعلوا النبي يتّجه نحو الكعبة ، في قيامه بالشعائر الإكرامية للصفا والمروة[٦] . وهكذا يعتقدون بانهم يوجّهون ذاك الإكرام ، الذي قام به النبي جرياً على عادة القرشيين القدماء ، الى « البيت » الوحيد في زعمهم ،

---

١) مسلم : ك . م . ١ : ٨٨ ، ٤٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٥

٢) حنبل : المسند ٤ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ؛ الترمذي : ك . م . ١ : ١٨١

٣) اما تضحية عبد المطلب فزعم لا سند له . انظر اقوال ابن هشام نفسه ، في السيرة ص ١٠٠ . ومن الحقّ ان القرآن (٥ [المائدة] ٩٦ ؛ و ٢٢ [الحجّ] ٣٤) يفرض التضحية في الكعبة . على اني لا ارى النبيّ قام بهذا الامر .

٤) وكثيراً ما اقرّ المحدّثون اعتباطاً الترادف المطلق بين « طاف » و « سعى » ، البغاوي : مصابيح السنّة ١ : ١٣٢ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٨٥

٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٣٥ ، ٨٨ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٩٠

٦) وعلى هذا ، اصبح من ضروريات الحج ان يتّجه المطوّف بالصفا نحو الكعبة ؛ راجع الشافعي : كتاب الامّ ٢ : ١٧٨ ، والطلب Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage à la Mekke*, 227

فيحوّلونه عن تلك « البيوت » او الحجارة المؤلّهة الخاصّة.[١]

كان في مكة الجاهلية عدد كبير من المواقف، والمنازل، والمناسك الثنوية، من تلك الحجارة او « البيوت » تُكرم في عبادة القرشيين الرسمية ولا سيما في اثناء العُمرة. وقد رأينا اشهرها الصفا والمروة يظلّ لها ذكر في الاسلام. اما ما بقي فقد عمل مؤرّخو المكّيين على طمس ذكره، لأن وجوده لا يوافق نظريتهم في مسجد الكعبة، ولأنّ القرآن لم يَرَ ان يذكر. ولا يخفى ان القرآن والحديث لا يمكن ان يكونا مصدرين مختلفين لمعلوماتنا عن نشأة الإسلام وما تقدّمها. انما كلاهما يهتمّان بالنقاط نفسها، فيأتي الحديث متوسّعاً بما اوجز القرآن في ذكره.

وقد اشرت في بحثي عن « الحجارة المؤلّهة وعبادتها عند الجاهليين » الى تلك المواكب الدينية في مكة الجاهلية. فتخيّلتها طائفة من حيّ الى حي، كما يفعل الحجّاج في عصرنا بقيادة المُطوِّف. وكان الطواف الاصيل في مكة معروفاً بالعُمرة، وهي تقع، على الأغلب، في شهر رجب. وكانوا يتجنبون ان يوافق موعدها مواسم الحجّ السنوي.

كان الموكب يتوقّف في طريقه لدى المساجد، والأنصاب، والأركان، والحجارة، وسائر تلك المعبودات القديمة التي تركتها مائلةً القبائلُ المتعاقبة على احتلال المنطقة منذ القدم كجرهم، وخُزاعة، حتى قريش، فيوليها الإكرام وفقاً لاهميتها[٢]. حتى اذا وصل امام المناسك المشهورة، من امثال تلك التي تعلق بها اليوم ذكريات اسلامية، جدّد الطواف والسعي بين حجرين او اكثر كما يفعل مثلًا في منسك الصفا والمروة المزدوج. وكأنه يودّ اشراكهما او اشراكها جميعاً في عبادته. ويختم الطواف[٣] « بالوقوف » في المنحر اي محلّ التضحية؛ وكان

---

١) مسلم: ك. م. ١: ٤٦٨؛ ٢: ٨٧ – ويذكر الطبري: التفسير ٢: ٢٦، حجرين مكرّمين في الصفا والمروة.

٢) ولا يزال، حتى يومنا هذا، عدد من الحجارة المكرّمة في مكة، راجع ابن بطوطة: رحلته ١: ٣٠٦؛ Burckhardt, *Voyages*, I, 167-168; *Chroniken*, Wüst., III, 46; Snouck Hurgronje, *Mekk. Feest*[2], 82.

٣) وقد نرى بدل « طاف » « دار » ب، ومنه المطوّف، والمُدوّر؛ اطلب عامر بن

افراد الموكب جميعهم يشتركون في هذا القربان ، وهو اسمى مظاهر العبادة.

هذه الطقوس والشعائر المتعددة لم يكن الشعب ليفهم تماماً اصلها وتطورها، على الاقل في العصر الذي ندرسها فيه[1]. ولعلها نتيجة شعائر عديدة تلخص تاريخ المدينة الديني ، منذ ان وصلها ، في العصور القديمة ، اوائل الاسماعيليين، فنزلوا حول بئر زمزم . امّا قبيل الهجرة فيظهر ان اكثر انصاب الأحياء المختلفة ، وبيوتها ومساجدها ، وأركانها ، اخذت تتضاءل بالنسبة للكعبة المحتوية على « بيت » الحيّ الارستوقراطي ، او « قريش البطحاء ». سُمّي كذلك تميزاً له عن الاحياء المتفرقة في الضواحي او « قريش الظواهر ». وكانت الكعبة تتاخم بناء يقبل نحوها براجهته[2] يسمّى « دار الندوة ». وهو بناء يصعب تحديده وبيان الغاية منه . الّا انه متعلّق بذكرى قُصيّ ، جدّ الأُسَر النبيلة في مكة ، التي كثيرًا مـا اعتصبت وحدها مجاهرة بانفرادهـا عن « قريش الظواهر » و« الاحلاف ».[3] وحول الكعبة ، في تلك الفسحة الضيّقة ، كانت تزدحم « الاندية » و« المجالس » المشهورة في قريش ؛ يجتمع فيها كبار القبيلة واصحاب القول فيها من امثال ابي سفيان ، وابي لهب ، وابي جهل، فيتناقشون في شؤون تلك « الجمهورية التجارية » . ولم يكن وجودهم في جوار المسجد[4] دليلًا على تقواهم . انما هو الدليل على ان هذا البناء كان يتّصف بصفة دقيقة التحديد اذ يجمع بين الحرم والسوق. فهو مسجد ومجلس معاً .

بيد ان افضلية الكعبة او سيادتها ، اذا صحّ التعبير ، تعزّزت منذ ان

الطفيل : ديوانه (طبعة Lyall) ١١ :٩ ، ثم المقطع ٨ ؛ ابن هشام: السيرة ١٤٢ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ؛ امرؤ القيس: المعلّقة ، ٥٨

١) اني اخالف ، في ما خصّ فهم « العُمرة » ، رأي Snouck Hurgronje, *Fest*², 80

٢) راجع ابن سعد: الطبقات ١ :٣٩ ؛ ابن جبير: رحلته (de Goeje²) ١٨١

٣) راجع كتابنا *La Mecque*, p. 50-62

٤) في الحِجْر مثلًا ، اسد الغابة ٤: ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٤٩ . وسنعود الى ذكر هذا . راجع ايضاً مسلم : ك. م. ٢ :٦١ ؛ ابن هشام: ك. م. ٤٧٣ ؛ الاغاني ٤: ١٨-١٩ ، ١٦ : ٦٥ ؛ اسد الغابة ٣: ٤٦ ؛ البخاري : الصحيح (اسطانبول) ١: ٦٥ ؛ Lammens, *La Mecque*, 175, 226.

ركز فيها الحجر الأسود ، وكان «بيتاً» تقالاً في اصله ، فاحتلّ مركزاً خاصاً الى جنب غيره من الأنصاب ، ضمن إطار الكعبة. ولم يلبث ، وهو بيت قريش البطحا. ، ان كسف رواء غيره من التذكارات الدينية القديمة بفضل قربه من بئر زمزم . ففاقت اهميته اهميّة الحجر ، والحطيم[1] ، ومقام ابراهيم[2] — وهو «بيت» تُرك بجوار الكعبة — وبالتالي سائر الحجارة المتفرّقة في احيا. المدينة وضواحيها. الّا ان هذه المساجد لم تُهجر تماماً ، وان ضعف تأثيرها ، بل ظلّ العرب يولونها الاكرام فيحجّون اليها ويطوفون بها. وهذا ما يحيّر ارباب النظرية الرسمية في وحدة المسجد الابراهيمي ، فيعملون على تلافيه بمختلف الطرق ، كما تقدّم. ولا نرى حاجة الى القول اننا نهمل تلك الاسطورة المضطربة الاساس التي تجعل من الكعبة هيكلاً شاملاً لمعبودات الجزيرة يجمع داخل بنائه وفي فنائه الضيق ٣٦٠ صنماً او نصباً[3].

III

ويجدر بنا ، في ذكر المناسك القرشية ، ان نفرد اشارة خاصة للمرتفعات والجبال المقدّسة ، وهي وافرة العدد[4] ، اشهرها حِرا.[5] ، وابو قُبَيس ، وثَبِير ، وغيرها. وكثيراً ما كان في اعلى الجبل بناء الى جنب شجرة مقدّسة. اما في الإسلام فقد

---

١) الازرقي (Wüstenfeld) ٢٦٧

٢) أوَ ينبغي ان نضيف الحَزْوَرَة ، «وهو موضع يلي البيت» ، كما في البكري: معجم ما استعجم ٢٧٨ ، ٢٧٩ ؛ ابن الاثير: النهاية ١ : ٢٢٤ . وقد ذكره الشعر الجاهلي ، ياقوت : المعجم (.Wüst) ٢ : ٢٦٢ ؛ Gaudefroy-Demombynes, *Pèlerinage*, 72, n.5 وهو يدوّنها «Hazūra»

٣) مسلم: ك. م. ٢ : ٨٥ ، ٨٦ وفيه الروايتان : صنم ونصب ؛ اسد الغابة ١ : ٣٠٠ ، وهو يذكر اصناماً من الرصاص ! وقد آمن Gaudefroy - Demombynes, *op. cit.*, 43, 56 بهذه الاسطورة مع شيء من التحفّظ .

٤) Snouck Hurgronje, ، واطلب في موقعها . *Chroniken*, Wüst. , 447-448 etc. *Mekka* I, 22 وقابل بما في السمهودي: وفاء الوفاء ٢ : ١٠٩

٥) على فرسخ من مكّة ، ابن بطّوطة: رحلته ١ : ٣٢٧ . ويلقّب اليوم «بجبل النور» ، وهو مخروط الشكل Burckhardt, *Voyages*, I, 79, 236, n. 1 . ويزعمون ان عبد المطلب لعن غزاة الحبش من اعلى قمته ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٥٦ ؛ الجاحظ : الحيوان ٢ : ٦٠

خصّ بعض هذه المناسك الجليلة بذكريات عن حياة النبي وآله. وأهمل سائرها فأسدل عليها النسيان شيئاً فشيئاً. واما في العصور القديمة فكانت هذه القمم تشارك سائر المساجد والمناسك في احترام الشعب واكرامه. لنا على ذلك شهادة الشعراء، اذ يحلفون بها كما يحلفون بالبيت العتيق نفسه. قال أحدهم:

فاني والذي حجّت قريشٌ محارمه، وما جمعت حراء[١]

وكانوا يحلفون بحراء. ويدوّنون أيمانهم في اسفل المعاهدات المعقودة بين القبائل ليضمنوا المحافظة عليها، فلا يخفر المتعاقدون ذممهم. ويذكر الشاعر خفاف بن ندبة السُلمي، مع ثبير، «رُكني حراء»[٢] اي الحجرين المؤلّهين فيه، وليُنتبه لاستعمال المثنى. وقد كان لقمّة حراء ميزة خاصة فكان يرقى اليها كبار القرشيين ليلقوا فيها اللعنات الحافلة على اعداء مكّة، كما فعل عبد المطلب في لعنه غزاة الحبش.[٣] وكأنها قمة الجلبوع[٤] لبني اسرائيل، على فرق ان حراء يظهر اجدب واوحش من جبل السامرة، خلافاً لمزاعم سپرنجر الذي يحوّل حراء الى مصيف يصعد اليه «من اهل مكة مَن لا تمكّنه ثروته من الذهاب الى الطائف.»[٥] ومهما يكن من أمر فقد اجمع المحدّثون وارباب التفسير على قداسته. وقد يحلّون محلّه جبل ثبير، وجبل ثور. وكأنهم يلهون بهذه الاسماء لهوهم المعتاد بالأرقام. حتى ان التقليد المدني ينقل جبل ثور الى المدينة فيقيمه في بلد الأنصار.[٦]

على قمة حراء الجرداء المشرفة على اوديته المنفغرة الموحشة، وفي الكهوف المنخرقة في جوانبه الشوهاء، مكوّنة مشاهد خليقة باثارة الرؤى والتخيّلات على

---

١) البكري: ك. م. ٢٧٢؛ اليعقوبي: تاريخه ١: ٢٧٩، وهو يكتب «حرى» بالقصر؛ الاغاني ١٦: ٦٤؛ ابن جبير: ك. م. ١١٢

٢) الاغاني ١٦: ١٤٣

٣) ابن سعد: الطبقات ١: ٥٦

٤) اطلب سفر الملوك الثاني ١: ٢١

٥) راجع كتابنا *Tāïf*, 49-50

٦) اطلب مناقشة في ذلك، في السمهودي: وفاء الوفاء ١: ٦٤-٦٥

قول سبرنجر[١] ، كان بعض القرشيين في الجاهلية يندفعون في سبيل التحنُّث[٢]. وما التحنُّث ؟ هي لفظة قديمة يُغرض فيها الدلالة على طريقة في السلوك الى الزهد ، على نوع من التنسُّك العربي لا يُحدّد تماماً ، على مجموعة من اعمال التوبة والرياضة الروحية تنافي ما نعرفه من طبيعة اولئك التجّار الآخذة بالواقع المادّي الحتي قبل كل شيء ، الضيّقة الصدر بمظاهر العبادة والتقوى ، ولا سيما اذا طالت.[٣] ومعما يكن من أمر فان هذه الاوصاف الروحانية كان من شأنها ان توهّب الناس للاعتقاد بالاندفاع الديني المنسوب الى « الحُمس » ، ثم بوجود الحنفاء ودورهم الديني . ولا يهمّنا الآن مناقشة هذه الامور والبحث في تاريخيتها . انما المهمّ انها — تاريخيةً كانت ام موضوعة — تدلّنا الدلالة الواضحة على اهمية جبل حِراء الطقسية او النسكية في « دين » قريش القديم . الى هذا الجبل كان يلجأ الحنيف الغامض الشخصية زيد بن عمرو فيعيش منفردًا ، هاربًا من المشركين[٤] . والیه لجأ محمد منصرفاً الى « الجِوار » ؛ ولا يخفى ما تفيده هذه اللفظة من وجود مكان مقدّس يجاوره . وقد قام النبي بهذه الزيارات ، و« جاور » مختلياً في رياضة روحية ؛ اذ كان لا يزال على دين قريش القديم ، بشهادة « السيرة » نفسها . فنستفيد دليلًا جديدًا على صفة حِراء المقدسة زمن الشِرك ، وعلى قيمة تلك الشعائر في دين قريش الجاهلي . وقد ظلّ النبي ، في الاسلام ، على تكريمه لجبل حِراء ، فقاد اليه مرّاتٍ اصحابه « العشرة المبشّرة »[٥].

١) Sprenger, *Mohammad*, I, 296-297

٢) البلاذري : انساب الأشراف (مخطوطة باريس) ص ٦٢ (وجه) ؛ الاغاني ١٦ : ٦٤ (ان تكن القطعة صحيحة النسبة) وفيها يدلّ حِراء على جبل من الجبال دون تخصيص، والشاهد قوله : « من سهلها وحِرائها » . وهناك زعم بان عبد المطلب كان اول من قام بالتحنُّث في حِراء ، وذلك في شهر رمضان (كذا !) ؛ البلاذري : ك . م . ٤٩ (قفا) ؛ ابن هشام : السيرة ١٥٢

٣) راجع مع ذلك Wensinck, *Arabic New Year and the Feast of tabernacles*, p. 8 etc.

٤) اسد الغابة ٣ : ٢٢٨ ؛ ابن هشام : السيرة ١٥٢

٥) الاغاني ٨ : ٨٧ ؛ الترمذي ٢ : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ؛ ابو داود : السُنن ٢ : ١٦٧ ؛

وهناك جبل مقدّس يحتلّ مركزاً خاصاً في تاريخ مكة[1] ، حتى انه قد يفوق شهرةً جبل حِراء . هو ابو قبيس المُشرف على مكة ، وعلى اكمة الصفا المتصلة به بواسطة طريق تصعد بدرج . هذا الدرج ، الضخم التقاطيع ، الآخذ من المنحدر الشرقي ، اتصوّره ، وقد انخفضت مراقيه تحت اقدام الحجّاج الصاعدين[2] اليه مواكب مواكب . وكان الكثيرون من هؤلاء الحجّاج لا يرضون الّا بان يُتمّوا « مساعيهم » الى الصفا والمروة ، بزيارة ابي قُبيس ، وبطوافهم حول « بيته » الخاص ، اي الركن او الحجر المكرّم فيه[3] . ومن ميزات ابي قُبيس الخاصّة كونه صالحاً لدعاء « الاستسقاء » . فكان الناس يصعدون اليه ، زمن الجدب ، فيستمطرون الغيث على بلادهم[4] . وذلك ان الصلوات والأدعية كانت مستجابة على قمّته ، ولا سيما ادعية المظلومين الذين كانوا يقصدونه فيستشهدونه ربّ « بيته » على احقادهم مستعينين بقدرته الغلّابة .[5] ويتردّد اسم ابي قبيس في رؤى عاتكة الهاشمية ، اخت العبّاس ، عندما اخذت تتكهّن بانكسار بدر[6] . اما الغاية من إقحام هذه الرؤيا التكهّنية في رواية العبّاسيين للسيرة فصرفُ النظر عن الموقف الشائن الذي وقفه العبّاس ، جدّ خلفاء بغداد ، في تلك الموقعة

اسد الغابة ٢:١٩٨ ، ٢٠٨ ؛ ٣:٢٧٨ Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, 139 وهو يخلط بين« العشرة المبشّرة » و« الصحابة العشرة الاولين » . وبعض المبشّرة كعُمر مثلاً ، لم يكونوا من قدماء الصحابة . ويستفاد من اسد الغابة ٣:١٠٢ ان النبي ، حتى بعد اهتدائه ، اشترك في موكب حجّ يرنّه المشركون .

١) الازرقي (.Wüstenf) ٤٧٧ ؛ الاصطخري : جغرافيته ١٦ ؛ المقدسي : جغرافيته ٧٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان (الطبعة المصرية) ١:١٥١ ؛ ابن جبير : ك . م . ١٠٨

٢) ابن سعد : الطبقات ١:١٢

٣) وقد يكون فيه اكثر من ركن . قابل بما ورد في البيت المذكور آنفاً : « وما جمعت حراء » . واطلب في ابن سعد : الطبقات ١:١٢ ، ذكر الصلات القديمة بين ابي قبيس والحجر الأسود .

٤) ابن سعد : ك . م . ١:٥٤ ؛ البلاذري : ك . م . ٤٨ (قفا) ؛ اسد الغابة ٥:٤٥٤–٤٥٥

٥) الاغاني ١٦:٦٦ ، ٧٠ ، ويضع التقليد الاسلامي في ابي قبيس قبور عددٍ من الانبياء. (*Chroniken* (W.), III, 442-443) ، اليعقوبي : تاريخه ٢:١٦

٦) الاغاني ٤:١٨ ؛ الواقدي (Kremer) ٢٢–٢٣

الشهيرة. ويرد اخيرًا ذكر ابي قبيس في لائحة « المشاهد » او الاماكن المقدسة ، التي يزورها الحجاج المسلمون[1]. وقد لا تكون هذه اللائحة تامة ؛ الا انها تذكر عددًا من مواقف العُمرة القرشية القديمة ، تلك التي كان يقوم بها الذ خصوم النبي.

وفي الحوليات المكية القديمة ان ابا قُبيس « اول جبل على الارض ... حين مادت »[2]، تكوّن من ارتفاع قشرة الأرض، قبل ان تثبت وتتمركز. ويقول ارباب الحديث وعلماء التفسير ، كي يبرّروا ذاك الإكرام الذي ظلّ المسلمون يولونه ابا قبيس ، ان هذا الجبل آوى الحجر الاسود زمن الطوفان ، فحفظه في احشائه[3]. وقد لا نخطئ اذا قلنا أنّ حجرًا اسود ، مماثلًا لحجر الكعبة ، كان يُكرّم في الزمن القديم على قمة الجبل المذكور . أوَ لا يجوز الظنّ ان الحجر الأسود نفسه — وقد كان « بيتاً » نقّالًا في اول الأمر ، كما تقدّم — انزلته قريش من ابي قبيس.[4] ومهما يكن من أمر ، فان التقليد الاسلامي يطلق على ابي قبيس لقب « الأمين » لامانته في حفظ الحجر ، ويضع فيه قبر آدم ، خاتمًا محاولاته في إسلام الجبل المذكور[5]، وتعفية ذكريات الشرك فيه ، وفي غيره من تلك المرتفعات المقدّسة التي كانت لا تزال تلفت انظار المسلمين فتجذبهم اليها جرياً على القيام بالشعائر الوطنية التقليدية .

لا شك في انه كان بناء على قمة ابي قبيس . على ان الرواة لا يذكرون صفته ، ولا الغاية منه ، ولا اشكاله الهندسية.[6] ولا نرى هذه التفاصيل تهمّهم ، ان لم نقل انها تضايقهم . فهل كان البناء يشبه الكعبة ؟ أو لم يكن فيه حجارة

١) المقدسي : جغرافيته ١٠٢

٢) الازرقي (.W) ٤٧٨

٣) الازرقي (.W) ٤٧٧ ؛ Dozy, *Die Israeliten zu Mekka*, 12 . وفي ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢ ، ١٧ ، رواية غريبة لهذا الحديث .

٤) راجع ابن سعد : الطبقات ، في المواضع المذكورة .

٥) ابن جبير : رحلته ١٠٨ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٢٢٦ — ولا ذكر لابي قبيس في سيرة ابن هشام .

٦) الازرقي ٤٧٨ ؛ قطب الدين في Chroniken, W. III, 442

مكرّمة نُقلت الى الكعبة في ما بعد ؟ لقد يستنتج شيء من هذا من مرويات التقليد . ولا نرى الامر غريباً ، ولا سيما في العصور القديمة ، اذ كانت منطقة الحرم معرَّضة للسيول المتكاثرة[1] التي كانت تجتاحها مرة بعد مرة ، فتجرف «بطن مكّة»[2]، وتهدم الكعبة نفسها . وحتى بعد الاسلام نرى ابا قُبيس يبدو اقدس المرتفعات القديمة المقدّسة بجوار مكة . فيستفيد من قربه الى الكعبة ، ومن سهولة الصعود اليه ، بالنسبة الى جبل حِراء الصعب المرتقى . ويظلّ المسلمون يعيدون فيه الشعائر التي جروا عليها منذ الجاهلية[3]. يعزّز ذلك وجود «البناء» المذكور الذي بقي قائماً مدة عشرات السنين بعد الهجرة .

ونعرف من اشهر زوّار ابي قبيس ، في الإسلام ، عمر بن ابي ربيعة ، المستقلّ برأيه لمخزوميّته ، والمائل الى التقليد الفني بشاعريته.[4] يرتقي الجبل ، برفقة بعض المخزوميين ، وهو بلباس الإحرام ، لباس الحفلات الدينية الخاصّ ، فيلفظ ، على القمة ، يميناً غموساً حالفاً «وربّ هذه البنية!» وليس من شكّ في معنى هذا القسم الواضح . الّا ان التقليد الاسلامي لا يرضى به ، ولا يدع عمر ابن ابي ربيعة يحلف «بالبنية» القائمة على قمة ابي قبيس . بل يجعل الشاعر يرقى الجبل بلباس الإحرام ، ليتّجه بنظره نحو الكعبة[5]، ويحلف ببيتها هي لا ببنية ابي قبيس القريبة منه.[6] ذلك لأن اليمين بغير «البيت العتيق» لا توافق نظرية وحدة المسجد الإبراهيمي التي أشرنا اليها . امّا نحن ، وقد رأينا الدلائل الوافرة

---

١) اطلب كتابنا في La Mecque, p. 103

٢) التعبير في القرآن ٤٨ [الفتح] ٢٤ . يزعم المفسّرون ان هذا في جوار الحُدَيبية ، مسلم : ك . م ٢٠ . ٢ : ١٠٢–١٠٣ . وهو تفسير لا مبرّر له . وواضح ان السورة تشير الى معركة في مكة بين المسلمين والمشركين ، معركة لم تذكرها «السيرة» ، ولم يبحث فيها Noldeke-Schwally, *Geschichte*, I, 216

٣) *Chroniken*, W., III, 442, 443

٤) اطلب كيف قلّد معلّقة امرئ القيس : Sal. Gandz, *Die Mu'allqa des Imrul-qais*, 122-125, dans les *Sitzungsberichte* de l'Acad. des sciences deVienne, 1913

٥) كما فعل النبي نفسه من عن اكمة الصفا ، في نظر التقليد . مسلم : ك . م ١ : ٤٦٨

٦) اطلب تفصيل المشهد في الاغاني ١ : ٣٦

على ضعف هذه النظريّة ، فلا نرى ما يمنع ان نفهم فهماً عادياً عمل الشاعر الظاهر ، غير محتاج الى تأويل او تخريج. والّا فما الذي يدفعه الى ارتقاء مشارف ابي قبيس ليستشهد من تلك المسافة ، ومن فوق أكمة الصفا ، ببنية الكعبة ؟

وعلى قمة ابي قُبيس ، شهدنا المغني ابن سريج يترنم ، ليلاً ، برثائه المؤثرة التي خصّها بقتلى قريش في معركة الحرّة[1] ، على عهد يزيد:

يا عين جودي بالدموع السفاح ، وابكي على قتلى قريش البطاح ![2]

ولا نستغرب اختيار المكان والزمان من قبل رجل فنّان كابن سريج ولكن ما القول في زيارة عبدالله بن الزبير لابي قبيس ، في تلك الساعة ؛ وهو « الخليفة القوّام الصوّام » الذي لم يُثره على خلافة يزيد الّا السهر على مصالح الدين ، كما يزعم ؟[3] حتى اذا سمع ، في جوف الليل ، ترنّمات المغنّي المكّي، تخيّل هواتف الجنّ تتداعى في ابي قبيس[4].

وفي عهد المروانيين ، تجرّأ القوم على التخلّص من تأثير هذه الذكريات الجاهلية الموروثة من عهد الشرك ، ففتحوا في جوانب ابي قُبيس مقلعاً للحجارة. هو ما تذكره رواية بحاجة الى تأكيد.[5]

III

وتجاوز ذكر الجبال المقدّسة ، في جوار مكة ، الى الشعر المنحول نفسه ، فاستغلّ واضعوه تلك المشاعر والمناسك المرتفعة. من ذلك ان ابن هشام اورد في « السيرة » بيتاً منسوباً الى ابي طالب يذكر فيه صعود الحجاج وتزولهم على مراقي حراء ، وثور ، وثبير[6] .

---

١) اطلب كتابنا في Yazīd, 237-257

٢) الاغاني ١ : ٦٩

٣) راجع Yazīd, 182 ؛ مسلم : ك. م. ٢ : ٢٧٥

٤) الاغاني ١ : ١٠٤ ، ٨ : ٥٨ . ولنذكر ان للجن مسجداً في مكة يُدعى « مسجد الجنّ ». وقد ورد ذكر هاتف على ابي قبيس في السمهودي : ك. م. ١ : ٢٧١ ، ١٧٣ ؛ اسد الغابة ٢ : ٢٨٣

٥) الاغاني ٤ : ١٥٣

٦) ابن هشام : السيرة ١٧٣ ؛ ياقوت : ك. م. ٣ : ٣٦

وقد استند واضع هذا الشعر الى تعابير قديمة ، والفاظ غريبة ، كان من شأنها ، في نظره ، ان تبرّر قدم القطعة فتوهم جاهليتها . وهو عمل طالما عهدناه في نحل الشعر القديم عامّة ، والشعر المستشهد به في السيرة خاصّة . حتى ان ابن هشام نفسه ، وهو اقرب رواة « السيرة » الى الاخلاص العلمي ، كان يساوره الشكّ احياناً في تاريخيّة هذه الشواهد ، فيشير الى شكّه بكلمة لطيفة او بتلميح دقيق ينبّه ذهن المطالع دون ان يجرح امانة سابقه ابن اسحق .

ولنعد الى جبل ثبير فنرى ان له المركز الخاصّ في الاحتفال بالحجّ العربي القديم . ذلك ان قائد تلك الجموع الصاخبة كان يراقب قمّة الجبل ، حتى اذا شاهد عليها اشعة الشمس الاولى — وهو الحدث المعبّر عنه بالقول السائر : « اشرق ثبير » — أشار بالسير فتحرك الموكب.[1] فثبير اذاً جبل مقدّس . يؤيد هذا وجود اسمه في الأيمان ، وفي معاهدات التحالف.[2]

وقد يذكّرنا جبل ثبير ، في بعض نصوص مجموعات الصحيح ، بطابور الانجيل ، او جبل الطور ؛ اذ نراه يضطرب على قواعده تحت خطى محمد صاعداً اليه ، مع خلفائه الثلاثة الأوّلين ، او مع « العشرة المبشّرة ».[3] فنسأل : وما الذي كان يدفعهم الى ارتقاء هذا الجبل ؟ اليس السبب نفسه الذي كان يدعو مؤمني الجاهلية الى ارتقائه ؟ وطبيعي ان جمّاع الحديث ورواة الاخبار التقليدية لم يكونوا ليتصوّروا هذه النتيجة . انما كان المهم في نظرهم ان يدعوا للاسلام

---

١) ابو داود : السُنن ١ : ١٩٤ ، وكل مجموعات « الصحيح » . وراجع ، بشأن التعبير : « أشرق ثبير » ، الحمداني : صفة جزيرة العرب (D. H. Müller) ٢٦٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٧٥

٢) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٧٩ ، ٢ : ١٦

٣) ياقوت : ك . م . ٢ : ٦–٧ ؛ البكري : ك . م . ٢١٢ ، ٢٢٢–٢٢٣ ؛ الترمذي : ك . م . ٢ : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ . وفي بعض النصوص ان هذه الاعجوبة حصلت على جبل حِراء : ويبيّنها اهل المدينة على جبل أُحد – وهو من الجبال المقدّسة كذلك (اطلب مسلم : ك . م . ٢ : ٢٢٩، والترمذي : في المحل المذكور) . بيد ان تعيين موضع ثبير يظلّ عرضة للمناقشة . ومنهم مَن يذكر عدة جبال باسم ثبير Burkhardt, *op. cit.* I, 386 ; *Chroniken*, W. III, 78-79 اما شنوك هورغرونيه فلا يذكر ثبيراً في *Mekka*, I, 22

بجميع المناسك القرشية . « انا المساجد لله » هذا ما حاولوه في ثبير . وهذا ما رأيناهم يحاولونه في حراء ، وابي قُبيس . ولم يكن التقليد لينوّع طرقه واساليبه.

وبعد وفاة النبي ، رأينا ارملته عائشة تصعد مراقي ثبير المقفرة لتنصرف الى « المجاورة » اذ التنسّك قائمةً بنوع من الرياضة الروحية.[1] وهو حدثٌ يُستغرب ، لأول وهلة ، بالنسبة الى امرأة معروفة بانغماسها في اضطرابات السياسة المعاصرة. على اننا نستفيد منه لفظة « المجاورة »[2] الدالّة على وجود بناء مقدّس يجاوره المتنسّك ، فيُستجاب دعاؤه[3]. وقد يكون هناك على القمة الجرداء نصب ضخم يمثل « البيت » القديم ، وهو ما وصف بقولهم : « حجر كأنه قبة »[4] وبالقرب منه شجرة وحيدة منفردة تُتمّ ما نعرفه من مظاهر المساجد الجاهلية في تِهامة[5]. ونذكر اخيرًا ان ثبيرًا كان يتمتّع بالحصانة المتعلّقة بمناطق الحرم[6].

سمعنا ابا طالب يحلف بجبل ثور[7] في بيت رجّحنا انه منحول . وسواء أكان منحولًا أم صحيحًا ، فان اليمين لا تفقد اهمّيتها. اذ ان النحل يدلّ على كثرة هذه الأيمان في الشعر ، كما ان الأيمان تدلّ على حرمة او قدسية الاشياء المتخذة موضوعًا لليمين ، وفي النصّ الذي يهمّنا ، تدلّ على قدسيّة جبل ثور. على انه يظهر اقلّ مرتفعات قريش حرمةً قدسيّة ، هذا اذا اخذنا بالدعاوة المنظّمة حول غيره من الجبال المقدسة في جوار مكة . ويُستنتج من قول ابن جبير ان الحجر المكرّم على قمة

١) راجع Wensinck, *op. cit.* p. 13-17

٢) البخاري : الصحيح (Kremer) ١ : ٤٠٨

٣) *Chroniken*, W. III, 451

٤) ياقوت : ك. م. ٦ : ٢٢٠ ؛ البكري : ك. م. ٧٠٤

٥) ياقوت : ك. م. ٦ : ٢٤٩ . ويظهر ان الحُجّاج ، بعد القيام بشعائر منى ، كانوا يزورون ثبيرًا ، اطلب بيتًا غامضًا في ابن دريد : الاشتقاق ١٧٣

٦) ابن هشام : ك. م. ١٦ (وهو منحول ولكنه قديم) . وفي التعبير الشعري : «حرّك ثبيرًا وحراء» يعني : حاول المستحيل ؛ الاغاني ١٦ : ١٤٣

٧) وللشاعر ابن زَبير ، من رجال القرن الاول للهجرة ، بيت يحلف فيه بجبل ثبير ؛ نجد فيه التألّب نفسه المنسوب الى ابي طالب ؛ الاغاني ٨ : ٢٩

هذا الجبل كان على شكل عمود[١]. وكان من فضل ثور أنه آوى النبي في هجرته مع ابي بكر. فكان من عادة النبي ان يلجأ اليه منفردًا[٢]، بعض الأحيان، كما كان ينفرد في جبل حراء، قبل الهجرة.[٣] اما ما يهمّنا خاصّة في روايات الحديث المتكاثرة حول هذه العبادات او الزيارات التقوية، فالدلالة على الاهمية الدينية التي كان يوليها قدماء العرب هذه الجبال والمرتفعات. هو ما قصدنا الاشارة اليه، وهو ما دلّ عليه ارباب الحديث والتفسير وعلماء السُّنة — عن غير قصد — في محاولاتهم نفي هذه الصفات الجاهلية عن المعابد المذكورة بجعلها مناسك الدين الاسلامي، تذكّر بزيارات النبي وغيره من آل البيت وكبار الصحابة.

وقد ظلّ النبي يقوم بهذه الزيارات التقوية في اثناء سكنه المدينة. الّا انه، في العشر السنوات الاخيرة من حياته، كانت بدانته تحول بينه وبين السير الطويل[٤]، فضلًا عن انه لم يكن يرغب في كثرة التنقّلات[٥]. بيد اننا نراه على جبل أُحد. هذا ان لم تكن عصبيّة الأنصار قد دفعتهم الى إشراك جبلهم — وهو من القسم المقدّسة كذلك — بفضيلة زيارة النبيّ له. وكان من ذكريات معركة أُحد ان لفتت اذهان المسلمين عن قمّة الجبل المكرّمة في الجاهلية، الى سفحه حيث جعل التقليد قبور حمزة ورفاقه من شهداء ذلك اليوم المشهور. فكان اذا رجع النبي من أسفاره، او غزواته، وشاهد عن بعد قمّة أُحد المخروطة، خاطبه كما يخاطب الكائن الحيّ فقال: «هذا جبل يحبّنا ونحبّه!»[٦]

---

١) ابن جبير: الرحلة ١١٧

٢) الازرقي: ك. م. ٤٢٧–٤٣٨، وفيه وصف الطريق التي اتبعها النبي بين حراء وثور، او ابي ثور (كذا) كما يسميه ابن جبير (ص ١١٦) - ويقع ثور في جنوبي مكّة على قول Snouck Hugronje, *Mekka*, I, 22

٣) اني افهم «الاعتكاف في المساجد» (القرآن ٢ [البقرة] ١٨٣) بمعنى الحجّ او العُمرة في مناسك الجبال خاصّة

٤) قابل بما في ابن الاثير: النهاية، في مادة: «بدن»؛ وكتابنا *Mo'âwia*, 398

٥) البخاري: ك. م. ١: ٤٥، ١٩٤؛ مسلم: ك. م. ٢: ١٤٥

٦) مسلم: ك. م. ١: ٥٢٣، ٥٢٠؛ وفي سائر مجموعات «الصحيح». السمهودي: ك. م. ٢: ١٠٧، ١٠٨ وفيها روايات مختلفة؛ اسد الغابة ٢: ٣٧٦

وهو هتاف غريب ان كان أحد لا يذكرّ ألّا بذاك الانكسار المؤثر !

ولنختمْ هذا البحث في القمم المقدّسة بملاحظة للجاحظ ينبّه فيها الى ان العرب الذين يطلقون على اولادهم اسماء جبل وطور لا يسمّونهم باعلام الجبال من امثال أحد ، وثبير ، وأجاء وسلمى ، ورضوى وما اشبه . ومع انهم كانوا يرون رؤوس هذه الجبال كلما خرجوا من مضاربهم[١] . أوَ كان ذلك احتراماً لصفة هذه الجبال المقدّسة ؟ أوَ يكونون قد احترموها كما احترموا آلهتهم فلم يطلقوا اسماءها على اولادهم ؟[٢] على انا رأينا ، في بعض النصوص ، كنية « ابي أجا » ثم اسم « سلمى » ، وهو جبل طي الثاني.[٣] وهناك رجل خزاعي من مشركي الجاهلية كان اسمه عبد ثور[٤]. فاذا كان ثور يدلّ على الجبل المقدس ، كما ارجح ، حق لنا ان نسأل : ولِمَ لا نرى اسماء المرتفعات المقدّسة تكثر في تركيب الاسماء المسندة الى الآلهة !

---

١) راجع كتاب الحيوان ١ : ١٥٨

٢) ومع ذلك فقد رأينا اسم « حُبل » في نسب زهير بن جناب الكلبي . على انه نسب موضوع .

٣) الاغاني ١١ : ٦٥ ؛ الجاحظ : ك . م . ١ : ١٥٦

٤) اسد الغابة ١ : ٤٩ . ولينتبه الى ان المضاف اليه غير مُعرّف خلافاً لما ورد مثلاً في الاسم : « عبد الأسد »



المدرسة والتربية الوطنيّة

موضوع

الاسبوع الاجتماعي الثاني

المنعقد في بيروت ٢٧ نيسان - ٣ ايار ١٩٤١

لخّصنا في « مشرق » السنة الفائتة (٣٨ [١٩٤٠] ٦٣-١٠٧) وقائع الاسبوع الاجتماعي الاول ، في بيروت ، الدائرة حول « المكاسب والمبادئ الاخلاقية » في لبنان . وقد رأت لجنة « الاسبوع » ان تخصّ وقائعه ، هذه السنة ، بموضوع حيويّ في مستقبل لبنان وتطوّره ، الا وهو « المدرسة الابتدائية والتربية الوطنيّة » . ولا يخفى ما يتنازع ابناء لبنان من نظريّات مختلفة في الشؤون التعليميّة ، ومن ميول تتباين بتباين مِلَله ونحله .

افتتح الاسبوع نيافة القاصد الرسولي ، السيّد ريمي لوبريتر ، صباح الاحد ٢٧ نيسان ١٩٤١ ، بخطاب ألقاه في كنيسة جامعة القديس يوسف ، بسط فيه حقّ الله وكنيسته في تنظيم التعليم ، وما كان من همّ الاحبار الاعظمين بالسهر على تثقيف الناشئة وتنكيبها عن المجاهل والمزالق .

ومساء الاثنين بُدئت المحاضرات في قاعة الحفلات بالجامعة . فتكلم اولًا الاستاذ جرمان واتران ، من اساتذة معهد الحقوق ، عن « حقّ قيصر في المدرسة » . فافاض في شرح المبادئ التي استندت اليها نظرية الدولة في احتكارها مهنّة التعليم ، وفرض اساليبها على الناشئة الوطنية .

وكانت لجنة الاسبوع قد سألت ارباب التعليم في لبنان ان يمدّوها بآرائهم في الموضوع ، وبما يرغبون فيه من تحسين وتعديل في المناهج والاساليب .

فاجتمع لديها طائفة وافرة من الآراء والرغبات تمثل نزعات المهذبين جميعها على اختلاف الديانات والمذاهب والمشارب . فعهدت الى الاستاذ سامي الشماس في ترتيبها ، وعرضها ، والتعليق عليها . فبسط ذلك في محاضرة الثلاثاء ، ٢٩ نيسان ، بعنوان : « التعليم كما يريد ان يكون . »

وفي اليوم التالي تكلم الاستاذ شكري القرداحي « عن التعليم كما هو » ، في حالته الحاضرة ، دارساً خصوصاً الشرائع والاحصائيات المتعلقة بتنظيم التعليم الابتدائي والسهر على سيره في لبنان .

وكان من نصيب الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، أن يتناول ، في محاضرة الخميس ١ ايار ، المدارس الابتدائية من رسمية وخاصة ، واصفاً حالة المعلمين ، وقيمة الكتب المدرسية ، ونزعات المناهج التعليمية .

وخُصت المحاضرة الخامسة بتأثير الرياضة البدنية في التهذيب الاجمالي . فبسطت السيدة برنار طريقة جورج هيبرت ، وما ادته من نتائج باهرة في المدارس الابتدائية في فرنسة .

اما ختام هذه الابحاث فمحاضرة شاملة للاب غوستاف نيرون اليسوعي ، افاض فيها بتفصيل دور الكنيسة في التعليم ، شارحاً المبادئ العامة التي يستند اليها اللاهوتيون في تنظيم التعليم تنظيماً دينياً اخلاقياً يصرفه عن استبداد السلطة ، وتحكم رب الدولة في عقول الناشئين وعواطفهم .

وقد رأينا ان نطلع قرّاء المشرق على زبدة المحاضرات الثلاث التي كانت اشدّها مساساً بالتعليم في لبنان ، وهي محاضرات الاساتذة الشماس ، والقرداحي ، والبستاني .

التعليم الابتدائي في لبنان

كما يريد أن يكون

بقلم سامي الشمّاس
المحامي لدى محكمة الاستئناف

ليس المتكلم هذا المساء بالمحاضر . انما هو مقرّر لما قام به غيره من استطلاع آراء الخبراء ورغباتهم في موضوع التعليم الابتدائي في لبنان . فالأفكار اذاً ليست افكاره ، بل هي افكار ارباب التعليم انفسهم . وهذا افضل واجدر بالانتباه .

ولا تخفى اهميّة هذا الموضوع . وقد زادها بروزاً ما نراه من اهتمام به ، في بـلاد توالت عليها الخطوب ، فدُفعت الى اعادة النظر في اساليب التعليم والتهذيب حتى المتبعة في تثقيف أصغر ابنائها . ولعلّهم هم المقصودون خاصّة . لأن السنّ التي يتفتّح فيها العقل ، هي التي يتأثر فيها أثره الأطول بل النهائي احياناً . وقد نجد في الرجل التامّ الرجولية أثرَ الغلام الناشئ اكثر مما نجد اثر الشابّ . ذلك ان الطابع الأول يظلّ في اعماق التأثرات التالية فلا يكاد يمحوه شيء . أوَ لم يقل برغسون « أن الانسان يظلّ اسير آرائه الاولى ، مهما يصنع للتخلّص منها . وإنْ ينسفها بالديناميت في شبابه ترجع اليه يوماً آخذة بثأرها . »

أوَ ليس من حقّ لبنان ان يستفيد من اختبار غيره ، فيقوم بواجبه تجاه هذه الناشئة الحائرة بين المنازع والمشارب المتضاربة . وان تكن الشؤون الاجتماعية ، في بلادنا ، تزداد خطورةً باتصالها بالمشاكل الطائفية فلا يجوز لنا اهمالها ، ولا تبرّر هذه الصعوبة نكوصنا عن المناقشة فيها . وقد طالما أُجّل البحث في هذا المشكل . حتى رأى منظّمو الاسبوع الحاضر ان قد حان الوقت لعرضه ودرسه مجرّداً تترفّع عن النظريّات والمشاحنات العقيمة .

وما الذي يفتقر اليه التعليم الابتدائي في لبنان ؟

سؤال طرحناه على مَن يُحسن الجواب عنه ؛ على ارباب التعليم انفسهم ، اولئك الذين يحيون بحياته . وهذه اجوبتهم متراكمة لدينا . فلنحاول عرضها وتنسيقها :

أو يمكن ذلك في تنوّعها واختلافها ؟ أوَ ليست تتباين الى ما لا نهاية له ؟ وأيّة نتيجة يجوز ان نستخلص منها جميعاً ؟

من الحقّ ان التعليم متعلّق بالطائفة ، فهو منظور اليه ، من عدّة نواحٍ ، بمنظار الطائفيّة المختلف باختلاف الطوائف . ولكن من الحق كذلك ان دارس هذه الأجوبة يشعر بالجذل اذ يرى الاتفاق عاماً في الشؤون الاساسيّة ، على رغم التباين في دقائق التطبيق . ويتضاعف جذله عندما يتحقّق اننا لم نترك طائفة او ملّة الّا استطلعنا رأيها في هـذه المشكلة المهمّة . فالنصارى والمسلمون والدروز ، الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس ، الموارنة والسريان والارمن ، الاميركان والفرنسيون ، العلمانيون والمرسلون ؛ جميعهم ارسلوا الينا الاجوبة الضافية . ورأينا جميعهم يتفقون في إقرار الغاية من التعليم والطرق المؤدّية الى هذه الغاية .

اما الغايـة فهي التربية قبل التعليم . واما الطرق فردُّها الى تنظيم تعليم وطني حقّ .

١

الغاية من التعليم

يتفق مراسلونا جميعهم على نقطة جوهرية . وهي ان التعليم ليس كلّ شيء . يمكن التلميذ ان يتوصّل الى معرفة القراءة والكتابة والحساب ، ويظلّ مفتقراً الى الشيء المهمّ في التعليم ، الى الجوهر التهذيبي ، الى التربية التي هي اساس كلّ علم . لقـد حفظ كثيراً من المعلومات . ولكن كيف حفظ ؟ وكيف دُرّب على إنالته الحكم الصائب ؟ والُخلق المستقيم ؟ والقلب الصالح الكبير ؟ ذاك القلب ينبوع الافكار السامية . وهل أُفهم ان من واجبه الطموح الدائم نحو الكمال فالعمل على افادة القريب ؟

هذه التربية الجامعة بين الاجتماع والاخلاق والدين، غير المنصرفة عن الاهتمام بالجسد، هي ما يهم مراسلينا من ارباب المدارس.

١ — التربية البدنية

اما في ما خص التربية البدنية فيحذرون من مجاوزة الحد في إجهاد الذهن. وأي كارثة تصيب المجتمع، اذا اهمل المربون شأن الجسد، في سبيل انشاء فلاسفة موتى! ليعمل التلامذة من ست الى سبع ساعات فقط في اليوم في ردهات موافقة للمبادئ الصحية. وهو اقصى ما يُطلب اليهم من جهد عقلي، في نظر الآنسة أليس قندلفت، من مدرسة الصنائع والفنون الدمشقية. اما سائر ساعات النهار فتُنفق في أعمال رياضية منظّمة وموجّهة توجيهاً مدرجاً نحو الألعاب الرياضية جميعها، كما يقول الاستاذ مشنوق مدير كلية المقاصد الخيرية في حرج بيروت.

ولدينا الآراء الكثيرة في هذا الموضوع، وكلها تنمّ عن جرأة وبعد نظر، في تربية الجسد. وقد تناول هذا البحث، قبل اربعين سنة، عالم كبير في الشؤون التربوية، هو ولم جايمس، فجعل اهم مشاكل التربية في اصلاح الجهاز العصبي. قائلاً: اجعلوا من هذا الجهاز صديقاً لكم محالفاً، والّا انقلب عدوّاً ضارّاً. فهو الذي تحتاجون اليه في الساعات الخطرة والايام العصيبة. واذا ما عملتم على تمرين اعصابكم يومياً منذ الصغر، فانلتموها الصحة والطمأنينة، كانت لكم نعم المعين في حاجتكم اليها، اثناء الكوارث والاضطرابات.

تربية الأعصاب! أوَ لسنا بأمسّ الحاجة اليها في يومنا هذا. وكأنه لم يمرّ على قول الفيلسوف المربي اربعون سنة!

٢ — التوازن العقلي

أوَ ضروريٌّ ان نُضيف الى ما تقدم ان الجسد لا يُربّى لاجل الجسد فحسب. وان غايتنا ليست بان نجعل من ابنائنا رجال مصارعة. وان « أعصاب الفولاذ » اذا ما حصلوا عليها بالتمرين، لا تفيد وحدها، ولا تغني عن سائر

مرامي التربية . وايّ فضل يكون للمدرسة اللبنانية اذا اكتفت بان تخرج للوطن حيوانات جميلة متناسقة الاعضاء ، سليمة الاجسام . ولا يخفى ان الجسد يكوّن حافظ العقل وخصمه معاً . ولم يُخلع العقل عن مقامه ، والحمد لله ! وان البشرية لتفتخر بسقراط التاعس اكثر من افتخارها بخنزير ستوارت ميل الضليع السمين . . .

وهو ما ترمي اليه التربية العقلية والخلقية والاجتماعية والدينية التي يفيض في وصفها مراسلونا ، ولهم الحقّ .

لقد لخّص مونتانيه (Montaigne) المثال الاعلى لنتاج هذه التربية بوصفه «الرأس الحسن الصنع» . فاقامه مناقضاً للرأس الملآن ، والعقل السطحي ، المغرور بالقياسات المادّية ، المعتزّ بالمشاحنات اللفظية ، المغتبط بشكوكه ، الطفيلي ، المتعصّب ، المنصرف عن الناس ، مدّعياً السموّ ، عاجزًا عن كل عمل بنائي . كل هذه المظاهر العقلية تناقض التربية الحقّ . اما هذه فمن مظاهرها الشعور بواجب الفرد الاجتماعي ؛ مع سماحة فعّالة غيرى ولكن دون اندفاع خيالي ؛ ورغبة في التقدم ولكن ضمن احترام التقاليد الصالحة والانتباه للاحوال والظروف ؛ وثقة بالنفس دون غرور ولا تهوّر . وخلاصة كل ذلك توازن عجيب نادر تُشير اليه ضمنياً اقوال مراسلينا في مختلف الوجهات من تربية النفس . ولنفصل بعض ذلك مستندين الى هذه الاقوال :

١ — ومن أُولاها التربية الدينية الاخلاقية التي يريدها الاب ديد اليسوعي منتشرة في القرى انتشارها في الاوساط المدنية . ويرغبها سيادة المطران بطانيان ، والاب جَندر اللعازاري ، على تقدّم دائم . أوَ ليس الدين اثبت قواعد الاخلاقيات ؟ بل قاعدتها الوحيـــدة في نظر الكثيرين ؟ وهذا التعليم المسيحي الذي يأمـــل سيادة المطران مبارك ان يراه في المحل الأرفع من المدارس اللبنانية ، يُحفظ ويُشرح يوماً فيوماً ، أوَ لا يظهر ، في عصرنا ، اداة الخلاص الوحيدة للكثيرين من اولئك الذين كانوا ، للأمس القريب ، يعتقدون بامكان ايجاد الاخلاقيات دون قاعدة دينية ، وبالتالي دون تبعة ولا عقاب ؟

وغنيّ عن البيان ان هذا الإصلاح في التهذيب الديني الاخلاقي يجب ان

يكون بمعزل عن الاستئثار والضغط على الضمائر ، كما يقول الاب ادمون الكبوشي . يجب ان يتصف هذا التهذيب بروح الامانة ، والتعاون ، والتساهل ، واحترام العمل والنظام . وهكذا نؤمّل الوصول ، يوماً ما ، الى توحيد الاخلاقيات في بلادنا

وأيّة ضمانة لنا ، في عصور تضاربت فيها الآراء ، تضاربَ النزعات والمثل العليا ، افضل من أن نرى المذاهب الخاصة جميعها تذوب في الايمان المشترك بالله ؟ ذاك الإيمان الذي تشير اليه السيدة ع . الدرزية آملةً ان ترى يوماً ما فضيلة التساهل لا تكتفي باحترام عقائد الغير ، بل تتسامى حتى تفوق نفسها منتقلةً الى التفاهم فالمحبّة الفعّالة . وعندئذٍ يمكننا ان نبتدئ الاعمال اليومية المدرسية ، وفقاً لرغبة السيدة ع . ، « بنشيد الصلاة الداعية الى الضمير المشترك .»

أملٌ بعيد التحقيق !

وليس من يتجاهل ذلك . ولا شك في انّ الجهود التي تبذل في هذا السبيل ستصطدم ، بالمنازعات المتتابعة مدة القرون ، بمظاهر الجهل ، والاحتقار ، والانكماش كلّ على نفسه المقفلة وعقائده الخاصّة ؟ بل قد تصطدم بفكرة عن الألوهة هي اقرب الى التفريق منها الى الجمع ، لأنها اقرب الى التواكل والتخاذل في التأمل العقيم منها الى التقارب في الجهد ، والتوحيد في العمل المشترك .

وهو ما أشارت اليه السيدة سُولتو قائلةً : « ان فكرة الله الممثّلة بالقضاء والقدر ، اللاجئة في كلّ شيء الى القول : « من الله ! » ، تدلّ على كسل وتواكل يمنعان الجهد والتفكير . بل تدلّ على عقلية شعب انهكته صورة الالوهة الماثلة في العهد القديم . فيجدر اذاً بتدريس العلوم ان يوسّع هذه الفكرة القديمة مولّداً منها الايمان بإله يدعونا الى الدرس ، فالى الاطلاع على الاسباب والنتائج في هذا العالم المادّي الذي نعيش فيه .»

ب — اما في مجال التربية الاجتماعية فيرى مراسلونا ان التعليم يفتقر الى الاصلاح الوافر . فان فكرة المجتمع ، وفكرة الوطنية ، تتضاءلان امام النزعات الانانية ، شخصيةً كانت ام طائفية . وكلهم يجمعون على ضرورة العمل في

سبيل تعزيز وطنية نيّرة تغذّيها فكرة الكرامة والشعور بالمسؤولية تجاه الوطن.

وقد اهتمّ السيد لاترويت ، مدير المدرسة العلمانية ، بالمظهر المسلكي من هذه التربية الاجتماعية. فرغب في ان ينظر المهذبون ، في توجيه التلامذة المهني ، الى ميزات محيطهم ، وحاجات البلد اللبناني . قال :

« يجب علينا ان نُمهّد للتوازن الاجتماعي ، والنهضة الاقتصادية ، بتوجيهنا القوى توجيهاً اصوب ، وبانتخابنا انتخاباً أفضل للمقدّرات والقيَم.»

وزاد اخوة المدارس المسيحيّة ، ناظرين الى ناحية عملية من الموضوع: « يجب ان يُسهر على العملة الصغار ، فيُدفع عنهم جشع بعض ارباب الأعمال من الذين يستخدمونهم فور خروجهم من المدرسة لقاء اجور زريّة تقرّبهم من الشقاء ، اذ لا يدفعون لهم الّا اربع الى خمس ليرات في الشهر ، دون غذاء.. »

وسنعود الى هذا المشكل المسلكي.

على ان هناك اموراً غير هذه تقلق خواطر مراسلينا . وقد اجمع الكثير منهم على السؤال : هل تعتقدون ان المدرسة تتمكّن وحدها من القيام بهذا التهذيب الديني ، الاخلاقي ، الاجتماعي ؟ واذا لم يجد الولد في عائلته ، كل يوم ، وفي محيط عمله ، بعد تحصيله الدروس ، جوّاً صالحاً ينمي فيه تلك العادات الحسنة التي استفادها في مدرسته ، ألا نكون قد بنينا على رمل ، أو غرسنا بجهد اشجاراً تفنى زهراتها قبل الثمر ؟

ولا دواء لهذا الّا بتعاون وثيق بين المدرسة والعائلة ، وبعمل دائب على تطهير الشارع ومشاهده ، وبتنظيم المنشآت الاجتماعية العامّة كمؤسسة حماية الصغار في لبنان وامثالها.

٣ — روح التعليم ولغته

هذا هو الاتّجاه الذي يودّ مراسلونا ان يوجّهوا فيه التعليم اللبناني . وهو يتناول فكرةً واسعة في المدرسة ، كما رأينا ، اذ يشمل التربية البدنية والاخلاقية والاجتماعية. بيد انه يفرض انّنا حللنا مشكلين جوهريّين في تعليمنا اللبناني وهما: ايّ روح يجب ان يتضمن هذا التعليم ؟ أيكون ميّالاً الى الروح

العربيّة ام يكتفي بشرقيته وحدها ؟ ولا يخفى ان هذا المشكل يهمّ التعليم والتربية معاً . وهو يقود الى درس مشكل آخر : ما هي اداة هذا التعليم ؟ او ما هي اللغة التي ينبغي ان نستعملها فيه ؟

ا — اما مشكلة الاتّجاه العامّ في ميـل التعليم اللبناني فتتعلّق بالتردّد بين الاستشراق والاستغراب.

ويُجمع مراساونا عـلى الرأي بأننا لا نحلّ المشكل بالمقابلة النظريّة بين الثقافتين الغربية والشرقية ، والحكم في ايتهما افضل بحدّ نفسها . انما يجب الأخذ بالامر الواقع في بلادنا . فنتحقق بالفعل اتّجاهاً واضحاً نحو الثقافة الغربية.

للبناني صفات ثابتة من الإيمان المتين ، والتقوى التقليديـة ، والمثابرة على الجد ، والانصراف عن الترف وزخارف العيش ، الّا انها تأثرت في عصرنا بكثير من العادات الدخيلة ، والأخلاق المستوردة . أتى بعضها مع مهاجرينا الراجعين الى اوطانهم . ونتج البعض الآخر من انحدار سكّان جبالنا الى المدن الرازحة اخلاقهـا تحت عبء استعباد مستطيل . فكان ان روح الاستقلال الشامخ والإباء المتمرّد ، صفة الجبل المنيع ، اخذ يتضاءل في جوّ المدينة المشبع ، في قرون الاستعباد ، باللطف حتى الذلّ ، وباللين حتى الصّغارة . لقد استفاد اللبناني ، في جوار المدينة ، مرونةً في المعاملات ، ومقدرة على انتهاز الفرص . ولكنه فقد الكثير من خلقه النبيل . وفقد ، كذلك ، العلاقة الدائمة بارضه الجبلية مولّدة هذا الخلق.

وكان ان الجيل الذي أدرك الرجولية بُعيد الحرب الكبرى أخذ ينقّش عن مُصلح لهذه الحال في الثقافة الغربية . وتبعته الى هذا المفزع الاجيال المتعاقبة.

ولكن هل جاءتنا هذه الثقافة بالفائدة المتوخاة ؟ هل كان صالحاً ، في اصلاح فاسدنا ، كلّ ما نقلناه عنها ؟

ذلك اننا لم نأخذ عن الغرب روح الحريّة وحده ، بل نقلنا ثقافته كاملة بكل ما فيها من حسن وسيّء ، بكل ما تفرض من تطوّرات ، وتولّد من حاجات جديدة.

وروح الحرية نفسه الذي تهافتنا عليه صالحاً في بلاده ، ألا ترى انه كثيراً ما تحوّل ، في عقليّة افرادنا غير المستعدة ، الى شيء من الثورة على كل نظام ، هو أبعد ما يكون عن المساهمة في العمل البناني . أو لم تقدنا هذه « الحريّة » المستوردة الى مجتمعنا دون تبليد ، الى انظمة سياسية سرعان ما ظهر فسادها ، فضرورة اصلاحها السريع . وكيف لا نذكر هنا عبرة نظامنا الدستوري الذي وُلد فجأة سنة ١٩٢٦ ، منقولاً عن الشرائع الدستورية الفرنسوية الراقية الى السنة ١٨٧٥ ، فاضطررنا الى تعديله سنة ١٩٢٧ ، اي بعد سنة من ولادته ، ثم عُدّل مرة ثانية سنة ١٩٢٩ ، ثم عُلّق سنة ١٩٣٢ . ثم غُيّر سنة ١٩٣٤ حتى عُلّق نهائياً منذ سنتين .

وسبب كل ذلك أننا اهملنا ، في نقلنا هذه المؤسسات ، أمراً جوهرياً ، وهو السؤال ، بادئ ذي بدء ، هل توافق بلادنا هذه الدساتير المجلوبة ؟ على فرض انها موافقة بحدّ نفسها . لقد تناسينا ان المؤسسات السياسية الفرنساوية ، التي كانت فرنسة قد اخذت تئنّ من فسادها ، لم تولد فجأة في تلك البلاد . بل كانت ثمرة تطوّر تاريخي وسياسي مستطيل . تناسينا كلّ هذا ، واغتبطنا بنعمة النظام البرلماني الهابطة علينا ، منبترة الصلة بتقاليدنا ونظمنا التاريخية . ولم نكن على الأهبة الكافية للأخذ بنظام سياسي لم تتطلبه تقاليدنا وطبيعتنا . فأخفق ، وكان لا بد من اخفاقه ، جارّاً وراءه هذه الويلات المعروفة والتي لا نزال نئنّ منها .

وقد يطول بنا الكلام اذا فصّلنا ضروريات التربية المدنية والوطنية التي يرغب مراسلونا في ان تُعلّم منذ عهد الدراسة الابتدائية . انها توجّه الوطني الى معرفة واجباته المدنية ، مع تفهم حقوقه ، فلا يطالب بالثانية قبل قيامه بالاولى ، من احترام السلطة ، ودفع الضرائب ، وما شاكل ، مستفيداً لحق مطالبة السلطة باحترام الحريّات الشخصية . ذلك ان الظلم لا يقلّ فساداً عن الفوضى .

النقل والتقليد هما الخطران اللذان يحذرها مدير التعليم اللبناني . لأن النقل ، دون تمييز ، يولّد ، في مجال التهذيب ، ما ولده من مساوئ في مجال

السياسة ، اذ تأتي نتائجه مفتعلة غير طبيعية ولا موالفة لحاجات البلاد. وهكذا القول عن كل ثقافة اجنبية اذا ما نُقلت الينا دون تمحيص ، ودون إعداد . فانها ، ولا سيما اذا كانت تفوق ثقافتنا ، تولّد تلك العقول المنفردة بتفكيرها ، المنقطعة عن محيطها ، المترفّعة عن مواطنيها حتى لا تفهمهم ولا يفهمونها . مَثلها في ذلك مَثَل الشرائع الثورية التي تُفرض فجأة ، فلا يطلبها التطوّر ولا يتحمّلها الشعب . غروس غريبة لا تلبث ان تذبل وتجفّ ، لانها منقطعة الاصول ، فلا تتناول غذاءها الحيوي من ارض البلاد التي نُقلت اليها.

واننا نأسف ألّا يتسع بنا المجال فنسرد صفحات قيّمة للسيدة سولتو ، حاملةً على ذاك النوع من التغرّب او الاستغراب يتطلّبه بعض اللبنانيين في سبيل الانتفاع المادي ، او في سبيل التظرّف والتحذلق ، مما لا يوافق في شيء جوهر الطبع اللبناني الاصيل .

ولا يعجزنا ان نوجد حلًّا موافقاً لطبيعة هذه البقعة ذات المدنية الخاصّة ، وقد اتجهت ، من ناحية ، جهة البحر المتوسّط وحضارته الغربية ، واستندت الى الشرق من ناحية أخرى.

وليس الكلام عن التعليم الثنوي والتعليم العالي. فانهما سيتجهان حتماً الى الجهة التي توافقها ، على كونها لا يتناولان الّا العدد القليل من الشعب . اما التعليم الابتدائي فيمكن ان نوجد له اتجاهاً متوازناً موافقاً لنزعات الشعب.

وقد أيدت مراسلتنا هذه الآراء بقوة وصراحة قائلة:

« ان التهذيب الغربي الذي نحمله الى هذه البلاد لا ينبغي ان يُفرض كشيء خارجي مصطنع ، حتى وان رغب فيه الشعب رغبة المعجب المخلص . بل يجب ان يكون متوافقاً كل التوافق مع غريزة هذا الشعب الروحية . مهمتنا نحن ان نحمل الجديد ، ولكن ينبغي لنا ان نؤسس مدرسة ذات علاقات حيوية بالبلاد التي نأتيها من الغرب بما نودّ ان نعطيها اياه . وكيف القيام بهذا التطعيم ؟ ذلك انه اذا اردنا ان تكون حياة ، فلا بدّ من القيام بتطعيم حقّ ! »

ثم تقول ان افضل طريقة يقوم بها الغربيون لعرض آرائهم وجعلها مقبولة هي أن يعملوا هم بإخلاص على فهم عقلية بلادنا ، ومحبة شعبنا. ولا بدّ من هذا

التفاهم لمعرفة الحاجات الصحيحة في مجال التعليم والتهذيب. وبالتفاهم وحده يتسع النفوذ المقبول، لا المفروض، المحترم العادات والتقاليد، الساهر على ان لا يحدث التباين الخطر بين المدرسة واهل التلميذ. لأن هؤلاء، وان كانوا لا يزالون على البساطة الفطرية، قد يمثلون افضل صفات الوطن. ولا بدّ للمهذب العصري من ان يحترم ما في العادات القديمة من روعة مؤثرة.

وبهذا الشرط وحده، اي بغربلة جميع العناصر الدخيلة موافقةً للبيئة اللبنانية، يمكن القيام بالعمل المجدي.

على هذا الأس الوطني للتعليم ماذا يجب ان نبني من المعلومات ؟

يقول الكثيرون بضرورة التوسّع في التعليم الابتدائي العملي بل الفنّي نفسه. ينبغي ان يطّلع صغار اللبنانيين على شؤون بلادهم، على تاريخهم، وتقاليدهم، ومقدّرات وطنهم الاقتصادية، وعلاقاتهم مع جيرانهم بالنسبة الى مركزهم الجغرافي؛ ومع كل هذا يجب ان نعزّز التعليم الزراعي في القرى، والصناعي في المدن، والتعليم المنزلي في مدارس البنات.

ولا شك في ان تعليمنا الحاضر ميّال الى النظريات اكثر منه الى التطبيق العملي. وهو ما يأسف له الاساتذة، فيتوقون الى إعداد التلامذة إعدادًا أمثل لمجابهة صعوبات الحياة، بتعزيز الناحية العملية في اذهانهم، وتعويدهم النشاط والإقدام.« وذلك بتلقينهم دروس اشياء، واعمالًا يدوية، موافقة لما يرونه في محيطهم. وهكذا يصبح التلميذ، وهو لا يزال في المدرسة، شاعرًا بلذّة الاختراع والاكتشاف، ولذة الاختبار الشخصي. ولهذا ينبغي ان يكون للمدرسة بستان صغير، ومعمل للنجارة مهما كان حقيرًا.»

ويزيد الاب ادمون انه يجب مساعدة التلامذة على ايجاد مهنة لهم يتمهنونها فورَ خروجهم من المدرسة.

اما هذه المهنة فيكاد يجمع المراسلون على أنها مهنة الأرض.

« إنه لمن الغريب، على قول جريدة «لاسيري» ان لا نجد مدرسة زراعية في هذه البلاد العائشة بفضل الزراعة. نحن لا نرغب في ان نجعل من ابنائنا مهندسين زراعيين. ولكن لنعلّم، على الأقل، ابناء الملاكين شيئًا من مبادئ الادارة

الزراعية ، وتنظيم المزدرعات ، كما ينبغي ان نطلع ابناء الفلاحين على المعلومات الضروريات بشأن انواع المزروعات التي تنبت في مناطقهم . ويجب ، في هذا ، ان نبدأ بالاساس ، فننشئ معلّمين على بعض المعرفة بالشؤون الزراعية ، فينشرونها بدورهم على تلاميذهم باسلوب يقرن النظرية بالعمل.»

ويفيدنا الاستاذ ستوارت دُد ، من الجامعة الاميركية ، معلومات جديرة بكل اهتمام ، في هذا الموضوع ، قال:

« الغاية الاساسية من مدارس القرى هي ان تُعدّ تلامذتها ، من صبيان وبنات ، لحياة القرية . وليس لمدرسة القرية ان تكون مرقاة لمدارس المدن ، ولا ان توجّه تلامذتها الى التعليم الثنوي. من هذا المبدأ تتفرّع النتائج التالية: ينبغي ان تصبح الزراعة ، النظرية والعملية ، اهم موضوعات التدريس . ويليها علم الصحة . اما القراءة فيجب ان تُستخدم لمطالعة النصوص الموافقة البيئة القروية ، لا لفهم الشعر العربي القديم والادب المدرسي . واما التاريخ والجغرافية والعلوم فعليها ان تكتفي بالمحل الثنوي . ويجب ان يعزّز التعليم الصناعي للصبيان ، والمنزليّ للبنات . واذا أمكن ، ينبغي انشاء شركات تعاونيّة ، كما هي الحال في الدانمرك ، واسوج ، وبلغارية ، والهند ، ومصر ، وفلسطين . وليس من يُنكر ما قامت به هذه الشركات من تحسين الحياة الاقتصادية في تلك البلاد . وعند ذلك يُصبح من منهاج التعليم شرح المبادئ التعاونيّة . ولا يخفى ان هذه الشركات التعاونية ، اذا ما عزّزتها الحكومة ، وعضدها مصرف مركزي ، قادرة على مساعدة الفلّاحين في حلّ مشاكلهم الاقتصادية ، والصحيّة ، وحسم المشاحنات بين القرى ، وملء الفراغ في الحياة الريفيّة ، ذلك الفراغ الملّ الذي يعزّز النزعة الى المدن في الشبيبة القروية.»

وعلى هذا الوتر من ضرورة تعزيز التعليم الزراعي يضرب الاخوة المريميّون ، آسفين على أنّ الارض تموت ، في بلادنا ، كما في اوربة . اما في بلادنا فان خطر الانصراف عن الارض يبدو اشدّ هولاً ، لأن مدننا لا توفّر للاجئين اليها المشاغل والاعمال الصناعية المتكاثرة في مدن اوربة .

على ان في مدننا صناعات صغيرة يجب تعزيزها ، وتوجيه بعض التلامذة

نحوها كصناعات النجارة والحدادة وما اليها .

ومما يجب إصلاحه ، واعادة النظر في تنظيمه ، تعليم البنات . فهو بحاجة ماسة الى الاتجاه اتجاهاً عملياً ينظر الى مصير البنات في الاسرة ، وفي الحياة . آخذاً ، قبل كل شيء ، بالتعليم المنزلي من طبخ ، وغسل ، وخياطة ، وما يتبعها من تطريز وتخريم ، اذا أمكن . هذا ما يطالب به سيادة المطران صائغ ، جامعاً الى صوته اصوات اكثر مراسلينا .

ويجب ان نشير الى ان هذا التوجيه العملي والمهني للتعليم الابتدائي ، الذي يطالب به الجميع ، قد خرج من حيّز الآمال والرغبات الى حيّز التحقيق في بعض مظاهره . من ذلك ما قام به حضرة الاباتي باسيل غانم ، رئيس الرهبنة اللبنانية العام ، من تجربة سيكون لها الاثر البعيد في الشؤون الاجتماعية . فقد انشأ تعليماً زراعياً في بعض مدارس الرهبانية ، ودعا العاطلين عن العمل الى حرث اراضي الرهبنة وزرعها بشروط تخوّلهم الملكية التامة لقسم من هذه الاراضي بعد ان يستثمروها بضع سنوات .

ب — اما لغة التعليم ، او الأداة التي يجب ان تُستعمل في المدارس ، فيجمع غالب المراسلين على ان التعليم الابتدائي يجب ان يكون باللغة الوطنية .

«يلزم صغارنا ان يتكلّموا اللغة العربية ، ويتلقّوا المعلومات بالعربية . فان ذكاءهم يكون أتمّ نموّاً باستعمالهم لغة الامّ . حتى اذا ادركوا التسع السنوات اقبلوا على اللغة الفرنسوية ، فتفقهوها ، ولكن دون ان يهملوا التحدث بالعربية في مدرستهم . »

هذا ما تراه الآنسة قندلفت . ويشاركها فيه لا اللبنانيون فقط بل الاساتذة الاوربيون انفسهم . وهذه السيدة سولتو ترى انه « من الواجب ان يُخصّ تعليم اللغة الفرنسوية بابناء المدن وحدهم ، وابناء القرى الكبيرة . » ويقرّ الاستاذ لاترويت بانه « مهما يكن من رغبته في نشر لغته الفرنسوية ، يرى هذه اللغة قليلة الفائدة للعمّالة وابناء المهن البسيطة الذين يؤمّون المدارس الابتدائية الوطنية .

وانه بامكانهم ان يتعلّموا بأنفسهم ، اذا ما عايشوا البنات المختلطة في المدن الكبرى ، ما يحتاجون اليه من المفردات الفرنسوية التي تسهّل معاملتهم مع الفرنساويين.»

... وها اننا انتهينا في هـذا القسم الاول ، وهو الأطول ، من عرض آراء الاساتذة ومديري المدارس ، في غاية التعليم الابتدائي وطرق توجيهه . فرأيناهم يجمعون على ان الغاية منه التربية والتهذيب قبل التعليم، وانه يجب ان يتّجه الى تهذيب الجسد والروح معاً ، متصفاً بالصفة الوطنية ، مستخدماً اللغة الوطنية.

٢

الطريق الى الغاية

يتعلّق القسم الثاني من مشكل التعليم الابتدائي بالطريق المؤدّية الى بلوغ الغاية منه ، فيسأل : هل نترك للحكومة ان تنظم هذا التعليم فتوزّعه هي على ابناء الرعية ؟ ام يجب الاهتمام بتعزيز المدارس الخاصّة ، وهي الكفيلة بنشره ؟

وغنيّ عن البيان ان لكلّ من النظريّتين المتعاكستين حزباً قوياً في بلادنا ، كما ان هناك كثيراً من دعاة التوفيق بعرض الحلول المتوسّطة .

اما النظرية الاولى القائلة باحتكار الحكومة للتعليم فتدعمها، على الغالب ، الاوساط العلمانيّة والاسلاميّة ، مؤيّدة السلطة في قولها ان التعليم ، اذا لم تقم به الدولة ، اصبح عرضةً للتأثّر بالخصائص الطائفية التي قد تؤدّي الى إضعاف التهذيب الوطني الشامل .

وهو ما يعبّر عنه بصراحة مدير المدرسة العلمانية فيأسف لكون المدارس الرسميّة لا تضمّ الّا ٢٠,٠٠٠ تلميذ مقابل ٦٠,٠٠٠ يختلفون الى المدارس الخاصّة . ويتّفق مع مدير مدرسة المقاصد الخيرية في القول ان التعليم الابتدائي المجاني الإلزامي — وهو تعليم يرغب فيه الجميع — لا يمكن ان يُحقّق تاماً الّا اذا تدخّلت فيه الدولة تدخّلاً تاماً .

واما الاوساط المسيحيّة فانها معاكسة إجمالاً لمبدإ احتكار الدولة للتعليم .

تقول هذه الاوساط انه لمن الوهم الخاطئ ان نتصوَّر المدرسة الرسمية تمثل التهذيب الوطني . انما هذا التهذيب الحق تقوم به بالأولى تلك المدرسة الخاصّة القديمة ، المنبثقة من الأرض ، الخليقة وحدها بالمحافظة على التقاليد الوطنية ، الساهرة على إنالة تلاميذها تلك الروح الدينية الأخلاقية التي جعلناها احدى الغايات الاساسية للتعليم . اما المدرسة الرسمية فلا تظهر حكوميّة في نظر سيادة المطران صائغ ، الّا بالخارج فقط . وهي في حقيقتها بعيدة عن روح الحياد التي تدّعيها . هي طائفيّة تنتمي الى طائفة واحدة ، الى الطائفة الاسلامية . ويزيد الاب ديد أنها « إرث تركته الحكومة التركية التي لم تكن تعترف الّا بالمدارس الاسلامية . »

ويستنتج سيادة المطران حيقاري انه يجب ان تُعزَّز المدارس الخاصّة وان تُبذل لها المساعدات الوافرة ، بل ان تُعتبر كالمدارس الرسمية .

وبين هاتين النظريّتين المتعاكستين مجال لحلٍّ متوسّط . وهو ما يراه الكثيرون في الوقت الحاضر ، حتى من ارباب النظريّتين ، اعتبارًا لأحوال اليوم التي تفرض الحلول الموقّتة . ولهذا رأينا ارباب السلطة أنفسهم يعترفون موقّتاً بالمدارس الطائفيّة ، كما ان ارباب هذه المدارس يتغاضون ، موقّتاً كذلك ، عن المدارس الرسميّة .

ذلك ان اصحاب النظرية الاولى يقرّون « بان الانتقال من المدارس الطائفية الخاصّة الى المدرسة الرسمية الموحّدة لا يمكن ان يكون الّا تدريجيًا . » ومعلومٌ انه من الصعوبة بمكان إلغاء المنشآت الحافلة بوقار الزمن ثم هناك سبب ماديٌّ هو ان موازنة التعليم الرسمي لأعجز من ان تستبدله بالمدارس الخاصّة جميعها .

ولا يخفى ، فوق ذلك ، ان الإصلاح المجدِّد ، اذا ما اردنا ان يكون ناجحاً ، يجب ان يُطبّق وفقاً لمنهاج تامّ في التنظيم المادي والتهذيبي . وما احوج التعليم الرسمي الى هذا التنظيم . يجب ان توزّع المدارس على جميع المناطق . فيُبنى ، في القرية المهمّة من المنطقة ، بناء خاصّ يكون جديرًا بمركز التعليم ، يُنظر فيه الى مقتضيات الفنّ التعليمي ، والى صحة التلاميذ ، مع الاهتمام بايجاد مسكن المعلم في البناء نفسه . ثم يجب درس منهاج مَرِن للتعليم يوافق اشتغال

القرويين في المواسم المختلفة ، وهي اشغال كثيرًا ما تتطلب معاونة ابنائهم ، ويستهدف حاجات البلاد آخذًا بالاتجاهات العملية التي أشرنا اليها. ويجب ، قبل كل ذلك ، الاهتمام بتخريج المعلمين وتنشئتهم تنشئة وطنية خالصة تستند الى الثقافة العامة ، والتهذيب المسلكي الخاص.

والى ان يتحقق هذا الامر ، يجدر بالسلطة ان تراقب التعليم الخاص مراقبة فعالة . وهو من حقها ، ومن واجبها كذلك. كما انه يجدر بها ان تولي المدارس الخاصة ، مقابل هذه المراقبة ، اعانات وافرة متتابعة .

هذا ما يكاد يُجمع عليه ارباب الحل المتوسط ، وما يقبل به اصحاب النظريتين المتعاكستين قبولًا تفرضه الاحوال الحاضرة .

لقد اطلنا في هذا العرض الموضوعي الجاف ، رغبة منا في اطلاع الجمهور على ما اتصفت به اجوبة المسؤولين من روح تجرد وتساهل خليق بكل اعجاب. لقد توصلوا ، على تباين نزعاتهم الطائفية ونظراتهم المذهبية ، الى تفهم لحاجات الوطن اللبناني جعلهم يجمعون ، او يكادون ، على اقرار الغايات ، والطرق ، والمناهج نفسها في إصلاح التعليم اللبناني. وقد رأيناهم ، حتى في مشكل الدولة والتعليم ، يقبلون بالحل المتوسط ، على ما في آرائهم من اختلاف بهذا الشأن .

فليتفضلوا بقبول شكر القائمين بهذا الاسبوع الاجتماعي ، لما اظهروه من تفاهم وددناه شاملًا سائر مظاهر حياتنا الخاصة والعامة . اذًا لرأينا جميع ابناء الوطن يستصغرون مشاحناتهم الطائفية والإقليمية ، مؤمنين ان لا حياة للبنان الّا بوضع مصلحته فوق المصالح جميعها .

على اننا ، حتى في هذا الأمل ، نرانا مضطرين الى الاتجاه نحو مهذبي الناشئة ، ارباب التعليم الابتدائي ، فنضع فيهم ثقتنا التامة ، راجين ان يكونوا عند هذه الثقة !

التعليم الابتدائي في لبنان

كما هو

درس في قوانينه وامصاباته

بقلم شكري القرداحي

الاستاذ في مدرسة الحقوق الفرنسية في بيروت ، وفي محفل الحق الدولي في لاهاي ، الرئيس الاول لمحكمة التمييز اللبنانية سابقاً

عُهد اليّ اليوم بانْ اطلعكم على كلّ ما قام به وطننا في حلّ هذا المشكل الصعب ، مشكل التعليم الابتدائي . فلزمني ان اعرض النصوص المختلفة المتعلّقة بالموضوع ، بعد ان آتي بلمحة على النتائج العملية التي توصّلنا اليها.

وكُلّكم يعلم ان حقّ التعليم هذا ، وما يجرُّ اليه من حقّ تهذيب الناشئة ، كثيراً ما تنازعته ، ولا تزال تتنازعه ، سلطتان قويّتان هما الأسرة والدولة.

ما هي حقوق الله في هـذا الشأن ؟ والى ايّ حدّ تصل حقوق القيصر ؟ اسئلة اساسيّة في التهذيب تباينت الاجوبة عنها في مختلف العصور ، وفقاً لتباين التأثير الروحي ، والجوّ السياسي في كل بلد .

وان لم يكن من موضوعي التبسُّط في شرح النظريّات المختلفة في حق التعليم ، إلّا ان بحثي في الحكم على التشريع المدرسي في لبنان يضطرّني الى الاشارة ، وان سريعة ، الى تلك المشاحنات المتتابعة التي يثيرها المشكل التعليمي في غير بلادنا ، ولا سيما في فرنسة . حتى اذا وضحت نواحي هذا المشكل عند سوانا ، أمكننا الاطّلاع على خصائص التعليم الابتدائي في لبنان ، وفهمنا الاسباب التاريخية التي عملت على تكوينه في ميزاته الحاضرة .

وغير خفي ان النظريات المهمة في هذا الأمر ثلاث احداهما تتوسط نظريتين اساسيتين متعاكستين:

اما الاولى، المستندة الى العقيدة الكاثوليكية، فتقول: ان الولد ليس ملك الدولة. انما هو ملك ابويه أولًا، ولهما الحق في تعليمه وترتيبه. حتى اذا كبر وبلغ مبلغ المواطنين، كان من حق الدولة ان تطلب منه الاشتراك في مصلحة المجتمع المشتركة. واذًا فللدولة ان تساعد ابويه في تعليمه، وان تهديهما الى الاسباب الصحيحة في ذلك. اما ان تحلّ محلّهما فلا!

ثم ان الكنيسة سلطة مهذبة مربية كذلك. وقد أسست لتقود ابناءها الى الحياة الروحية. فنالت اذًا الحق بان تعلّم كل الخلائق. ومَن اعطى الحياة كان من حقه ان يقودها الى كمالها التام.

تعاكس هذه النظرية نظريةٌ متطرفة أيدها دانتون عندما أعلن ان الولد ملك الدولة قبل ان يكون ملك أبويه. ثم اتبعها ارباب الانظمة المتسلطة الذين يدّعون باحتكار التعليم، فيجعلون منه حقًا ملكيًا بل مصلحة من المصالح العامة لا يجوز ان تقوم بها الّا السلطة.

وبين هاتين النظريتين نظرية ثالثة تحاول التوسط والتوفيق. وهي النظرية التي انتهت اليها فرنسة، فاعترفت، الى جنب التعليم الرسمي الإجباري، بالمدارس الحرّة الخاصة. ومع ذلك فمعروف ان حرية الضمائر لم تكن مضمونة الضمانة الكافية، لما تضمنته من إجحاف شرائع السنة ١٩٠١ المشهورة، تلك الشرائع التي ألغاها مؤخرًا المرشال بتان في سبيل تمكين الوحدة الوطنية، فوضع حدًا لتسلط متحكم كان يحرم الجمعيات الدينية من حق يوليه الدستور لجميع ابناء الوطن.

اما في لبنان وسورية فانّ التعليم يظهر بمظهر يختلف كل الاختلاف عمّا ظهر به في فرنسة. ذلك ان بلادنا، بما فيها من اختلاف الديانات والطوائف، وبما كانت خاضعة له من نظام سياسي، توصّلت الى الاخذ بطريقة تعليمية يجدر بنا ان نفتش عن اصولها في تطوّرات العصور الماضية.

وينبغي لنا ان نفصّل اوّلاً مظاهر السياسة التعليمية التي اتبعتها السلطة تجاه غير المسلمين من سكان البلاد . ثم نـذكر الصفات المميّزة التي خصّت التعليم الموزّع على المسلمين وحدهم . ولا تخفى اهمية الاطلاع على هاتين النقطتين في فهم الاساوب التعليمي الذي لا يزال معمولاً به في بلادنا حتى اليوم.

ومعلومٌ انه في بلاد الإسلام ، كان الـذميون ـــ اي اصحاب الكتب المنزلة ، ابناء الديانات الموحاة من يهود ونصارى ـــ يتمتعون بحقوق واسعة على شرط ان يدفعوا لبيت المال ضريبةً تُعرف بالجزية . فاذا دفعوها ، دخلوا في « ذمّة » المسلمين ، فاصبحت اشخاصهم واملاكهم بمأمن من السطو والتعديات. اما في ما خصّ القضاء ، فكانوا لا يعرفون الّا رؤساءهم الروحيين . وكان لهؤلاء الصلاحيات القضائية حتى في المواد الحقوقية والتجارية . وكانوا يخضعون لشرائعهم الخاصة وعاداتهم التقليدية . ولهم الحقّ بتعليم ابنائهم ، كما يشاؤون . على شريطة ان يحترموا «الذمّة» تلك العهدة التي تفرض عليهم ، فوق دفع الجزية ، فرائض متنوّعة منها ان يمتنعوا ، في اقوالهم وكتاباتهم ، عن كل ما يُشتمّ منه اهانة النبي ودينه.

اما المسلمون فكانت ديانتهم تمتزج بوطنيتهم . فلا وطن لهم الّا الإسلام. وقد ظلّ هذا الامتزاج في البلاد العثمانية حتى السنة ١٨٦٩ وفيها ظهر القانون الفاصل فكرة « التابعية » الوطنية عن فكرة الدين . فكان مشكل التعليم سهل الحلّ . اذ لم يكن ممكناً ان تتصوّر اختلافاً ، فضلاً عن المماكسة ، بين السلطة الدينية والحكم الزمني ، لأن الخليفة كان يجمع بين يديه كل السلطات. فهو حافظ الايمان ، وأمير المؤمنين ، وهو المتسلّط المطلق على رعاياه. هو الخليفة وهو الامبراطور ، جامعاً في شخصه ، كما يقول الشاعر ، نصفَي الله سبحانه وتعالى.

ويجب القول ان نظام التساهل هذا الذي كان يُطلق للذمّيين ، اي النصارى واليهود ، حرّية التعليم في الدولة الاسلامية ، لم يكن غريباً عمّا كان يراه علماء الحقوق آنئذ في فكرة الدولة . وذلك انه بينا نرى صاحب السلطة ، في عصرنا هذا ، يبسط سلطته على جميع سكان الوطن ، لم يكن الأمر كـذلك في

العصور الماضية . ولا سيما في البلاد الاسلامية ، بسبب ما رأيناه من امتزاج السلطتين . فان الشرائع في هذه البلاد ، كما في رومة القديمة ، لم تكن تتناول الّا الوطنيّين فقط . اما الغرباء ، بوطنهم او بدينهم ، فكانوا يظلّون خاضعين لشرائعهم وتقاليدهم الخاصة . وهو ما يُعرف عند ارباب الحقوق ، بنظام « شخصيّة الشرائع » اي الشرائع المتعلّقة بالاشخاص ، الذي طالما ساد في المدن والحكومات القديمة . يقابله نظام الشرائع المتعلّقة بالاراضي ، الذي حلّ محلّه في عصرنا ، دالّاً على تقدّم في فكرة الدولة ، وارتقاء في العادات ، وتطوّر في فكرة الرعوية الوطنية خرج بها عن التقيّد بفكرة الدين ، الى أسّ افسح يُبنى على احوال البلاد الاقتصادية والسياسية ، على « حقّ الارض » و« حق الدم » معاً .

فوضح ، والحالة هذه ، كيف أُطلقت حرّية التعليم كحقّ طبيعي ، فرأينا ، الى جنب المدارس الرسمية العثمانية ، اي الاسلامية ، مدارس خاصة بالطوائف غير الاسلامية توزّع فيها على ابنائها التعليم الموافق معتقداتهم .

وعندما أُعلن الخطّ الهمايوني سنة ١٨٥٦ ، الذي أقرّ بحقوق غير المسلمين إقراراً صريحاً ، لم يزد على ان نظّم هذه الحقوق والخصائص المعمول بها منذ القدم جرياً على العادات التقليدية ، ودوّنها في عهدة ذات مغزى دولي ، مع الاحتفاظ سرّاً بالرغبة في ضبطها وإضعافها كلما سنحت الفرصة .

واذاً فليس غريباً ان تكون المناطق اللبنانية ، المستقلّة في قلب الدولة العثمانية ، والمناطق التي سُلخت عنه فأُلحقت بولايات الدولة قبل الحرب الكبرى ١٩١٤ - ١٩١٨ ، قد تمتّعت دوماً بحق انشاء مدارس خاصة ، توزّع فيها بكل حرية التعليم الديني والمدني ، دون ان تعترضها السلطة بشيء .

ولهذا لم يصب مشكل التعليم في بلادنا ، بسبب هذه الحوادث التاريخية وبسبب تكوين الدولة العثمانية ، بشيء من الأزمات التي انتابته في فرنسة مثلاً ، اذ شاءت السلطة ان تحتكر حقّ التعليم فسنّت تلك القوانين التي اثارت الاحتجاجات المتتابعة .

اما وقد اوضحنا ما كانت عليه من الحرّية المدارس المسيحية واليهودية في

الدولة العثمانية ، فلنعرض للتعليم بالنظر الى المسلمين انفسهم وكيف كانت تتصوّره الدولة الاسلامية . حتى اذا وضح هذا الأمر ، ادركنا الاسباب في إهمال السلطة المركزية شأن التعليم وما كان من تأخرها في تنظيم هذه المصلحة وفقاً لمقتضيات العصر.

أو ينبغي لنا التذكير بانّ التعليم ظلّ ، مدة الاحقاب المتعاقبة ، في « دار الإسلام » ، خاضعاً للسلطة الدينية . قِبْلَة الشيخ ، ومركزه المسجد ، وصفته دينيّة مذهبيّة خالصة . وكان المسجد ، في ذاك العصر ، محور الحياة الاسلامية العامّة سياسيّة كانت ، او ادبيّة ، او قضائية . في ظله يجلس القضاة للنظر في دعاوي المؤمنين ، ويتحلّق الطلّاب حول الفقهاء متمرّنين على اساليب الجدل ، ويجتمع اللغويون والنحاة يتناظرون ويتشاحنون . وقد ظلّ للجامع تأثيره العقلي حتى بعد تأسيس « المدارس » فكان كثيراً ما يسيطر عليها ، ويشاركها في نشر التعليم وتعزيز الأدب . وهو أمر يشبه ما عرفناه عن اوربة ، في القرون الوسطى ، اذ كان رجال الدين يتولون الثقافة والعلم ، ويكادون يحتكرون نشرها ، حتى ان الناس طالما تناقشوا في هل كانت « الجامعة » مؤسسة دينية ام علمانية ؟

وكان هذا التأثير الديني يتجاوز العلوم العالية الى العلوم الثنوية والابتدائية ، فكانت مدارس الأطفال في حواضر الاسلام تخضع لسلطة الجامع.

فلا غرابة اذاً ان تكون هذه الصبغة الدينية الاكليريكية ، اذا صحّ التعبير ، ميّزت سياسة التعليم في تركية منذ نشأتها الى القرن التاسع عشر . حتى اذا شاءت الدولة ، في السنة ١٨٥٦ ، ان تدخل في حلقة الدول الاوربية ، وجب عليها ان تقلّد الحكومات العصرية فتفصل بين مؤسساتها المدنية والسلطة الدينية ، وبالتالي ان تنشئ للتعليم مصلحة عامة تضمها تحت مراقبتها المباشرة ، فتخرجها من الحلقة الدينيّة.

بيد ان التنظيم المدني العام لمصلحة المعارف لم يُظهر الّا في السنة ١٨٦٩ . بعد ان تقدّمته محاولات محدودة تناولت نقاطاً خاصة ، وذلك منذ السنة ١٨٤٦ تقريباً .

اما القانون الشامل المؤرخ في ٢ ايلول ١٨٦٩ ، الذي قلد ما يشبهه في الدول الاوربية ، وفتح باباً لكثير من الإصلاحات ، فانه يظلّ حدثاً مهماً في تاريخ تلك الدولة .

خرج التعليم من يد رجال الدين ، مستقلاً في مصلحة رسمية اخذت تتطور وتتقدم الى جنب المدارس الخاصة التي ظلت تركية تسمح لغير المسلمين بانشائها وادارتها .

آن لنا ، بعد هذه المعلومات التاريخية ، ان نبحث في الشريعة العثمانية الوحيدة المتعلقة بالتعليم ، والتي لا تزال مرعيّة الاجراء نظرياً ، على الأقل ، بعد ان نسخت جميع الأحكام السابقة . هي شريعة ٢٣ ايلول ١٩١٣ .

تعلن هذه الشريعة مبدأين جوهريين اخذتهما من الحق العصري ، وهما :

١ ً ــ التعليم الابتدائي اجباري .

٢ ً ــ التعليم الابتدائي مجّاني في مدارس الحكومة الابتدائية .

اما المؤسسات الخاصة بالتعليم الابتدائي فهي :

مدارس الحضانة ، ومدارس الصبيان والبنات الابتدائية ، ومدرسة الصنائع والفنون . وينبغي ان يكون ، مبدئياً ، في كل قرية ، وفي كل حيّ من احياء المدن ، مدرسة ابتدائية .

وتفرض الشريعة ان تكون المدارس حسنة الإنارة موافقة للمبادئ الصحية .

اما النفقات فتقوم بها الخزينة المحلية . تقدّم ثمن الارض اللازمة للأبنية المدرسية ، ونفقات البناء ، ورواتب المعلمين والمعلمات ، وثمن الاثاث الخ . ويحقّ لمجلس الادارة في الولاية ، او اللواء ، او القضاء اللاحقة به القرية ، أن يفرض على المكلفين هذه النفقات وفقاً لما هو مدوّن في سجلّ الأعشار .

امــا منهاج التعليم الابتدائي فيشتمل على تعليم القرآن لصغار المسلمين ، وتعليم الدروس الدينية لغير المسلمين ، ثم الحساب ، والهندسة ، والتاريخ ، ودروس الاشياء ، والرياضة البدنية الخ . ثم تهتم الشريعة بشروط قبول المعلّمين الاصلاء والمتمرنين بهم . وطريقة تفتيشهم ومراقبتهم . وتفصــل واجباتهم

الملكيّة ، مدقّقة ببعض هذه الواجبات مما يستحق ذكراً خاصاً . من ذلك أن من واجب المعلّم ان يتجنب كل قول من شأنه ان يمسّ الشعور الديني في سامعه ، وان يبتعد عن القمار ، والمسكر وما شاكل . اما العقوبات التأديبيّة المقرّرة في حال تجاهل هذه الواجبات ، او الإخلال بها ، فتتدرّج من التنبيه البسيط الى الطرد النهائي من مصلحة المعارف العامّة ، مارّة بوقف الراتب ، والنقل ، والحطّ من الدرجة الخ . ولنذكر ان شريعة سنة ١٩١٣ تنزل العقاب الصارم بكلّ معلّم يقوم بما يؤول الى الحطّ من شرف المهنة وكرامتها . وحسناً تفعل . فان هذه المواقف ، من قبل المعلّم ، لشديدة الخطر ، ولا سيما امام صغار لا تمكنهم سنّهم وحالتهم من التمييز ، ولا من الردّ على معلّمهم . فهم كالشمع اللين ينطبع فيه كلّ ما يشاء الطابع . فضلاً عن انه ، في بلاد تعدّدت مذاهبها وعناصرها ، قد يؤدّي التطرّف بالكلام ، مهما يكن بسيط الظاهر ، الى نتائج خطيرة وخيمة العواقب على الوحدة الوطنيّة .

ولا يمكنني التوسع في النظام المتعلّق بتعيين المعلّمين ، ومراقبتهم ، وتنظيم عقوباتهم مما قد يتطلّب بحثاً برأسه . فاكتفيت بالاشارة اليه .

ولما كان التعليم الابتدائي اجبارياً اتخذت الشريعة سلسلةً من الأحكام من شأنها ان تجعل هذا الإجبار عملياً ، وان تتوصل ، اذا لزم الأمر ، الى فرض العقوبات على مخالفيه . ففرضت عقوبات قد تصل الى الحبس تطبّق بحقّ ارباب العيال ، اذا تركوا اولادهم في الجهل الكامل .

هذه الشريعة ، التي لخصنا اهمّ ما فيها ، تظهر لنا ممتازة . على انها لم تُطبّق . وليس ، في لبنان ، في يومنا الحاضر ، شريعة تفرض التعليم الاجباري ، وبالتالي عقاب مَن لا يرسل اولاده الى المدرسة ، خاصة كانت ام رسمية .

من الحق ان شريعة ٢٠ تموز ١٩٢٨ ، تنصّ في مادتها الرابعة ، على « ان التعليم الابتدائي إجباري » ولكنها تنصّ ذلك لتخوّل مصلحة المعارف العامة الحقّ باتخاذ التدابير اللازمة لفتح مدرسة تراها ضرورية في المنطقة . من هذه الناحية الخاصّة فهمت الشريعة إجبارية التعليم ، فلم تضع شيئاً من النصوص في عقاب

من لا يطيع الشريعة.

اما تنظيم التعليم الابتدائي في لبنان، ليومنا هذا، فهو ما نلخصه في ما يلي:

في اول درجات التعليم مدارس الحضانة، تقبل التلامذة دون السنة السادسة. وتعلّمهم باللغة العربية مبادئ القراءة، والحساب، ودروس الاشياء، ثم مبادئ الرسم، والاشغال اليدوية. ومدة هذا التعليم سنتان. ينتقل التلامذة بعدهما الى المدارس الابتدائية وفيها ثلاثة صفوف: الصفّ التجهيزي، والصف الإعدادي، والصف الوسط. وكل صفّ يشمل دراسة سنتين. وتختم هذه الدروس بالشهادة الاعدادية الابتدائية ينالها الطالب اذا نجح، وكان عمره لا يقل عن احدى عشرة سنة كاملة. وليس من رسم لهذا الامتحان.

وبعد هذه الحلقة من التعليم، الشاملة ثماني سنوات، يحق للتلميذ ان يتابع دروسه، فيدخل الصف العالي، ومدة الدراسة فيه سنة واحدة، ثم الصف التكميلي ومدته سنتان. حتى اذا اجتاز الرابعة عشرة من عمره، على الأقلّ، ونجح في الامتحان، نال الشهادة التكميلية للدروس الابتدائية.

❁

من يقوم بنفقات انشاء هذه المدارس الابتدائية، وتنظيمها والسهر عليها؟

ينظّم ذلك القانون اللبناني الصادر في ٢٠ شباط ١٩٢٨. فيضع على عاتق البلديات ثمن الارض المعدّة لبناء المدرسة، مع أكلاف البناء او نفقات الإيجار. اما رواتب المعلّمين وتعويضاتهم — تلك التي كانت تضعها شريعة السنة ١٩١٣ العثمانية على عهدة الموازنة المركزية — فان القانون اللبناني المذكور يضعها على كاهل الحكومة.

اما نظام المعلّمين فلا يستند الى شريعة سنة ١٩١٣، بل الى الأحكام الخاصة بنظام الموظّفين اللبنانيين، الساهر على معاقبة كل خطإ مسلكي.

وليُسمح لي هنا ان أشير الى حكم تسرّب الى قانون الموجبات اللبناني، وان اتبسط قليلًا في شرح ما يرمي اليه.

وفقًا للمبادئ العصرية بشأن المسؤولية، تلك المبادئ التي لا تقرّها المجلة،

وضع القانون اللبناني ، في مادته ١٢٦ ، الفقرة الثانية ، قاعدة بشأن مسؤولية المعلّمين . وقد اتبع فيها القانون الفرنسي ، فقال ان المعلّمين مسؤولون عن الضرر الناتج من عمل غير مشروع يقوم به تلاميذهم ، او المتمرّنون عندهم ، في الوقت الذي يكونون فيه تحت مراقبتهم . على ان مسؤولية الدولة تُستبدل بمسؤولية اعضاء التعليم العامّ . وهذه المسؤولية تتناول إجمالاً كلّ المعلّمين سواء أكانوا من التعليم العامّ ام من التعليم الخاص.

وينبغي لنا ألّا نخلط بين اصول هذه المسؤولية الخطيرة الواقعة على كاهل مَن يهتمّون بتعليم الولد وتهذيبه .

ولنفصّل اولاً نوع المسؤولية . فقد تتعلّق بكل ضرر لاحق بالولد نفسه ، ثم بكل ضرر ينتج من عمل يقوم به الولد .

اما في الحالة الأولى — اي اذا حصل ضرر للولد — فلا تُطبّق المادة ١٢٦ من القانون اللبناني . فاذا أُصيب احد الاولاد بضرر من جرّاء سوء حالة المدرسة ، او فساد محتوياتها ، او اهمال المعلّم نفسه . فلا يكون هذا مسؤولاً الّا اذا أُقيمت البيّنات على خطإه .

اما في الحالة الثانية — اي اذا نتج ضرر من عمل يقوم به الولد — فتُطبّق المادة ١٢٦ حالاً ، ويكون المعلّم مسؤولاً دون ان تُقام البيّنات على خطإه.

واهمّ الحوادث التي تُطبّق فيها هذه المسؤولية الخطيرة هي التي تنتج من الاضرار التي يلحقها الاولاد بعضهم ببعض . فيكون فيها المعلّم مسؤولاً من قبل القانون ، الّا اذا بيّن — والبيّنة تقع عليه — انه لم يهمل شيئاً من واجبه في مراقبة الاولاد . كأن ينتج الحادث من ضربة سدّدها فجأة احد التلاميذ الى جاره ، دون ان يسبقها مشاحنة او حركة تنبّه المعلّم الى التدخّل السريع .

وعلى هذا فقد حُكم انه اذا ضرب احد التلاميذ جاره بقلمه فقلع عينه ، في اثناء الدرس ، فلا يمكن ان يكون المعلّم مسؤولاً بشرط ان يقع الحادث فجأة من غير ان يكون هناك نزاع بين التلميذين او حركة تنبّه المعلّم المشغول باصلاح فرض تلميذ آخر . كذلك تُحطّ عن المعلّم كل مسؤولية ، اذا كان قد اضطرّ ، بحكم مهنته ، الى التغيّب عن مكان الحادث.

ولنضف الى هذا ان القانون لا يهمّه ان يكون التلامذة الموكول امرهم الى المعلّم قد بلغوا سنّ الرشد ام لا . فان واجب المراقبة هو هو .

ولا يخفى ان المسؤوليّة التي يفرضها القانون المدني الفرنسي على المعلّم الرسمي باهظة جدًا ، اذا انتبهنا الى ان هذا المعلّم لا يختار التلاميذ الذين يجب عليه ان يراقبهم ، ولا مكان المراقبة ، ولا معاونيه في هـذا الواجب . فيكون ان القانون يحمله مسؤولًا شرعاً عن حالة لم يكن حُرًّا في ايجادها .

وقد بلغ من تأثّر احد المعلّمين تجاه حكم نزل به من جرّاء هذه المسؤولية الهائلة ، ان فقد عقله دفعة واحدة . فأثّر هذا الحادث المؤسف في اوساط الاشتراع الفرنسية ، وتولّد عنه ملحق أصلح به القانون الاصلي ، بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٩٩ فأضيف الى المادة ١٣٨٤ هذه الفقرة : « بيد ان مسؤولية الدولة تحلّ محلّ مسؤولية اعضاء التعليم الرسمي . » وهي الفقرة التي استوحى منها القانون اللبناني الفقرة الثانية من المادة ١٢٦ .

ولكن يجب ألّا نعتقد ان معلّمي التعليم الرسمي ، في لبنان وفي فرنسة ، يتخلّصون من كل مسؤولية بفضل هذه الفقرة الاضافية . فان الإجماع يُقرّ لهم بالتخلّص ، لا من المسؤولية ، بل من وضعهم الشرعي بحالة المسؤولية . اي انهم يظلّون عرضةً لتحمّل نتائج الضرر ، اذا ما ظهرت البيّنات على خطأهم . فهم ليسوا مسؤولين شرعاً ، ودون بيّنة كما كانت حالهم وفقاً للنصّ الاول . واذاً فيظلّ من حق المصاب بضرر ناتج من عمل قام به التلميذ ان يرفع الدعوى على المعلّم . ولكنه لا ينال الحكم الّا اذا بيّن خطأ المعلّم المذكور . اما اذا كان الخطأ عرضةً للشكّ ، فالأفضل للمتضرّر ان يرفع الدعوى على الدولة ، وهي المسؤولة شرعاً عن الحادث . ويحق للدولة ، بعد هذا ، ان تتّجه جهة المعلّم فتنال منه حقّها ، اذا ما بيّنت خطأه .

المدارس الخاصة

ولننتقل الى المدارس الخاصة من وطنية واجنبية . وقد رأينا كيف نشأت منذ القدم جرياً على السوابق التاريخية والحقوق المكتسبة ، وبفضل الامتيازات

التي اقرّت للاجانب الحقّ بانشاء مؤسسات للتعليم . ولا تزال هذه المدارس ، منذ انشاء الانتداب الفرنسوي ، تستفيد من رعاية المفوضية العليا والحكومة اللبنانية جميعاً.

اما تنظيم هذه المعاهد الخاصّة ، في زمننا الحاضر ، فسنه قانون ٢٠ حزيران ١٩٢٤ ، المتمّم بعدة قوانين ، ولاسيا قانون ٣٠ آب ١٩٣٢ . وهو يبدأ بتحديد المدرسة الخاصّة . وهي معهد للتربية يؤسسه ويدير عليه افراد او جمعيات . ويشمل التحديد الاجانب والوطنيين.

ومن المفيد ان نذكر هنا انه ، وان يكن نظام الامتيازات الاجنبية كان يسمح للاجانب بانشاء المدارس فان الشريعة العثمانية كانت لا تُقرّ بوجود الاشخاص المعنويين . واذا كان لا بدّ للجمعيات الاجنبية كالرهبنات والرسالات ان تسجّل ابنية مدارسها باسماء افراد تتخذهم واسطة بينها وبين سجلّات الطابو . وقد زالت الحاجة الى هذا الاسلوب ، منذ صدور قرار ٧ نيسان ١٩٢٦ ، الذي اقرّ للاشخاص المعنويين الحق بالملكية العقارية في بلاد الانتداب . حتى اصبح اليوم لكل فرد ولكل جمعية ، مهما تكن دولتها وتابعيتها ، اذا قاما بالشروط التي يفرضها القانون ، ان يفتحا مدرسة ويتملكا الاراضي والابنية اللازمة لها.

وما هي الشروط التي يفرضها القانون ؟

يجب على طالب فتح مدرسة ان يقدّم :

١ً – عريضة يقرنها بشهاداته الجامعية ، مع شهادة بحسن اخلاقه وسلوكه.

٢ً – تصميم بناء المدرسة ، مع شهادة بموافقة البناء للشروط الصحية . واذا كانت المدرسة داخلية ، وجب ان يدلّ على الغرف المعدّة للنوم ، وعلى عدد التلامذة التي يمكن للمدرسة ان تقبلهم.

٣ً – نسخة عن المنهاج الذي ستتبعه المدرسة مع لائحة باسماء الكتب التي تدرّسها.

وكل مدرسة لا تحمل مأذونية تُقفل.

وقد نصّت المادة الثامنة من القرار المذكور على ان لمديري المدارس الخاصّة

الحريّة التامّة في اختيار الاساليب التعليمية ، والمناهج ، والكتب التي يشاؤون ، الّا ما كان منها ممنوعاً بقرار يتعلّق بالنظام العامّ .

ويجب ان يكون في كل مدرسة خاصّة سجلّ باسماء المعلّمين ونوع مهنتهم مدة الخمس السنوات الاخيرة ؛ وسجلّ آخر يدوّن دخول التلاميذ وخروجهم من المدرسة .

ج

رأينا ان قانون السنة ١٩١٣ العثماني ينظّم مراقبة شديدة على التعليم الخاصّ . اما قرار السنة ١٩٢٤ فقد رأى ان لا يدع سبيلًا لتدخّل السلطة في شؤون المدارس الخاصّة تدخلًا قد يكون فيه شيء من التسرّع . فحصر دور التفتيش الرسمي لهذه المدارس في ما تعلّق بالنظم الاخلاقية والمبادئ الصحيّة . على ان المفتشين الرسميين ، اذا ما كانوا في بعثة قانونية ، لهم الحق ان يحضروا الصفوف ليطّلعوا على مستوى التعليم في اللغتين الاجباريّتين ، اي العربية والفرنسية .

ويقوم بهذه المهمّة التفتيشية في المدارس الخاصّة الوطنيّة مفتشو المعارف اللبنانية والمفتشون اللاحقون بالمفوضية العليا . اما المدارس الاجنبية فيقوم بتفتيشها مستشار المعارف العامّة في المفوّضية ومَن يقوم مقامه من مفتشي المعارف في الدوائر المذكورة .

وقد شاءت الحكومة اللبنانية ان تتم العمل التشريعي الذي قام به قرار ٢٠ حزيران ١٩٢٤ ، فاصدرت بتاريخ اول اذار ١٩٣١ مرسوماً ينظّم تنظيماً دقيقاً شروط انشاء المدارس الخاصّة ، وطرق تفتيشها .

فاصبح من حق رئيس الحكومة وحده ان يسمح بفتح مدرسة خاصّة لبنانية او ان يأمر باقفالها . اما المعاهد الاجنبية فتظلّ خاضعة لقرار حزيران ١٩٢٤ ، ويظلّ هذا الحق للمفوّض السامي .

ثم ينصّ المرسوم على ان كل معلّم في مدرسة خاصة يجب ان يكون بالغاً على الاقل ثمانية عشر عاماً ، وان يكون حائزاً على الشهادة الابتدائية اللبنانية . اما مدير المدرسة الخاصّة فيجب ان يكون بالغاً الحادية والعشرين على الاقل، وحائزاً

الشهادة التكميلية . ولا يجوز ان يكون معلماً من حكم عليه قضائياً بمادة مخالفة الاخلاق او الامانة .

ويتلافى القانون ما قد ينشأ من تأخير استخدام المأذونيات ، فينص على ان كل مدرسة لا تفتح ابوابها في مدة سنتين من تاريخ اعطاء المأذونية ، تُنزع منها هذه المأذونية ، كما انها تُنزع من كل مدرسة ظلّت مقفلة مدة سنتين متتابعتين .

ويزيد ان تعليم اللغتين العربية والفرنسوية اجباري .

ويؤيّد ما ذكره القرار السابق من ان مديري المدارس الخاصة لهم ملء الحرية في اختيار المناهج والكتب .

ونصل الآن الى مشكلة الإعانات المدرسية .

يقول القانون اللبناني الصادر في ١٠ اذار ١٩٢٨ ان الدولة تساهم في نفقات المدارس الخاصة للتعليم الابتدائي باعانات منظّمة .

ولكي يحق للمدرسة ان تستفيد من هذه الاعانات ينبغي لها :

١ — ان يكون بيدها مأذونية .

٢ — ان يكون فيها على الاقل ثلاثون تلميذاً .

٣ — ان يكون اكبر راتب تتناوله لا يتجاوز الليرة اللبنانية - السورية عن التلميذ في الشهر .

تعيّن الاعانات وتدفعها وزارة المعارف العامة وفقاً للاساليب التالية :

تُجمع المدارس المأذون لها مرتّبة بالنظر الى اصحاب المأذونيات اي اصحاب السلطة المشرفين عليها . ثم يجمع عدد المدارس والمعلمين والتلامذة في كل قسم وتُقترح الاعانة بالنسبة الى هذا المجموع . ولا تُعطى إعانة اقل من عشر ليرات ذهبية بالسنة .

وتُراقب الدولة ، بواسطة المفتشين الرسميين ، صفة التعليم في المدارس التي تتلقى الاعانات حتى اذا ظهر ان المدرسة لا تقوم بالشروط التي ينص عليها القانون ، نُزعت عنها الاعانة .

ولنشر الى ان مشكلة الإعانات حُلت في بلادنا بروح اقرب الى العدل والتساهل مما كانت عليه في فرنسة حتى هذه الايام الاخيرة . ذلك ان مجلس شورى الدولة في فرنسة اصدر رأيين بتاريخ ٢٩ تموز ١٨٨٨ ، و١٣ تشرين الثاني من السنة نفسها ، منع فيهما منعاً صريحاً ان تمطي البلديات اعانات للمدارس الخاصّة . وهو منع احتجّ عليه عدد من رجال القانون، فنعوا على الدولة أنها تعزز مصلحة التعليم العام مجحفةً بحق التعليم الخاص. واظهروا الأمل بان عاطفة العدل والشعور بالحاجات الاجتماعية تدفع ارباب السلطة الى إحلال فكرة التعاون والتعاضد ، محلّ المنافسة والمزاحمة في المؤسسات التعليمية .

وقد حُقق هذا الأمل مؤخرًا بفضل السيد جاك شيثاليه الذي سمح للبلديات ، منذ دخوله وزارة المعارف العامّة ، بان تعطي الاعانات لكل مؤسسة تجدها صالحة للخير العام وبالتالي جديرة بالمساعدة .

❀

وتجب الاشارة الى ان التعليم اللبناني ، الرسمي والخاص ، يستفيد من رعاية مجلس المعارف الاعلى الذي ألّف بمرسوم تاريخ ٢ نيسان ١٩٢٨ يتممه مرسوم ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٩ . ولا نذكر المجلس الاعلى الذي انشأته المفوضية بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٩٢٦ لمجمل البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسوي . انما يهمنا المجلس المختص بلبنان وحده .

يرئس هذا المجلس وزير التربية الوطنية ، ويؤلّف من عدة اعضاء منهم رئيس الجامعة الفرنسوية ورئيس الجامعة الاميركية ، وعضو من اساتذة التعليم العالي ، وستة اعضاء من اساتذة التعليم الثنوي . الخ .

وتتناول مهمّته درس الشؤون المتعلّقة بالمناهج والاساليب التعليمية ، ونظام الامتحانات ، وتدريج الشهادات ، وانظمة المدارس الخاصّة ، وصفات الكتب المدرسية .

وللوزير ان يستفتي هذا المجلس بشأن الإعانات المدرسية ، وانشاء المدارس ، والانظمة الداخلية المتبعة فيها .

❀

ومن المفيد ، بعد هذه اللمحة الاجمالية في التشريع المدرسي ولاسيما ما تعلق منه بالتعليم الابتدائي ، ان نتجه جهة الاحصائيات التعليمية ، فنطلع على مبلغ انتشار التعليم في لبنان ، وعلى نصيب المدارس الخاصة والرسمية من هذا الانتشار .

ولن نطيل في هذه الاحصائيات الكثيرة خشية الملل ، انما نكتفي باهمها دلالة على ما نرمي اليه ، محيلين من أراد على ما جمعناه وسننشره من ارقام بلينة في التعليم اللبناني .

ينتج من الاحصائيات الرسمية ان عدد التلاميذ في لبنان يبلغ ١٧,١ ٪ من مجموع السكان اللبنانيين .

ويبلغ عدد التلاميذ المسيحيين بالنسبة الى مجموع المسيحيين في لبنان ٢٤ ٪ .

اما عدد هؤلاء التلاميذ المسيحيين بالنسبة الى مجموع التلاميذ فهو مرتفع جداً يبلغ ٧١,٢ بالمائة .

واما عدد التلاميذ المسلمين بالنسبة الى مجموع المسلمين فـلا يتجاوز ٩,٧ بالمائة . ويستفاد من المعلومات التي وصلت الينا ان هذا النقص ناتج من ان كثيراً من المناطق الشيعية لا مدارس فيها .

وهاكم الآن ما وصل الينا من الاحصائيات في المدارس الرسمية الحكومية والمدارس الخاصة الطائفية :

يختلف الى المدارس الرسمية ١٩,٨٧٩ تلميذاً يمثلون ١٣,٦ ٪ من مجموع التلاميذ .

اما المدارس الخاصة فتجمع الاسلامية والدرزية منها ١٨,٩٣٦ تلميذاً اي ١٣ ٪ من المجموع المدرسي العام .

وتجمع المدارس الكاثوليكية ٣٦,١٨٨ تلميذاً اي ٢٥,٤ ٪ من المجموع العام .

وفي المدارس المسيحية ، غير الكاثوليكية ، ٢٣,٤٣٦ تلميذاً اي ١٦,١ ٪

اما المدارس الفرنسوية ففيها ٣٥,٦١٦ تلميذاً اي ٢٤,٥ ٪ من مجموع التلاميذ العام .

بقيت نقطة سأشير اليها في ختام هذا البحث . وهي اني ، في مراجعة هذه الشرائع والقوانين المتعلقة بالتعليم اللبناني ، رأيت ان عددًا من المدارس أقفل ثم أعيد فتحه . ولم أفهم الحكمة في ذلك . قد تكون الوزارة او المديرية تسرعت في اقفال بعض المدارس ، فوجب ، انصافًا ، ان يُرجع عن القرار المبتسر . وقد تكون المؤثرات السياسية دفعت الى هذين العملين المتناقضين . ومهما يكن من امر فلا أخال ذلك ناتجًا من خلوّ المدرسة من التلامذة . وهو ما اردت الاشارة اليه مما قد يحصل في بلادنا ، كما حصل في فرنسة بالنظر الى بعض المحاكم . فقد ذكروا محكمة في بعض الاقضية عاطلة عن العمل حتى ان الرئيس كان يقضي ايامه بصيد السمك . ولم تكن الحكومة لتتخذ قرارًا حاسمًا بالغائها خشية احتجاج نوّاب المنطقة ، وغضب الرأي العامّ .

على اني لا أخال في المدارس اللبنانية ما يصل الى هذه الدرجة من الفراغ ، ولا في المعلّمين اللبنانيين من ينصرف ، ايام العمل ، الى الصيد على مختلف انواعه .

اما اذا كان هذا فلا يجوز للحكومة ان تتردّد في اقفال المدرسة .

وان كان لنا ان نستخلص نتيجة من هذه الابحاث فهي اهمية التعليم بالنظر الى اهميّة غايته ، وهي تهذيب الولد الذي يجمع الناس على احترامه بما يتضمن من قوة روحية ومدنية تُستخدم في بناء المجتمع الوطني المقبل .

المعلمون ، وكتب التعليم ، والمناهج

التعليم الابتدائي كما هو

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف وفي داري المعلمين والمعلمات

ان يكن من الحق أن درجة المدنية في بلدٍ ما تُقاس بنسبة عدد المعلمين في هذا البلد ، فليسعد لبنان باحتلاله المحلّ العالي الى جنب الشعوب الرفيعة التمدّن .

فان مدارسه الابتدائية ، من رسمية وخاصّة ، تنشر التعليم على ١٣٥,١٧٥ تلميذًا اي ما يعادل ١٧,١٪ من مجموع سكّانه . وهي نسبة خطيرة جدًّا اذا ما قارنّاها بما في الاقطار المجاورة من الشرق الادنى . وهذا جبل الدروز ، المتعطّش اليوم الى العلم ، يظهر في المكان الثاني بنسبة ٨,٨٧٪ من مجموع سكّانه . اما سورية فلا تعدّ في التعليم الابتدائي الّا ٤,٤٨٪ . وتأتي بعدها بلاد العلويين بنسبة ٣,٣٦٪ ، واخيرًا مصر بنسبة ٠,٥٤٪ اي ما يعادل ٣٢ مرةً اقلّ من لبنان .

بيد ان هذا التعليم المنشور عندنا بلا قيد ولا حصر في مختلف درجات المجتمع ، هل يحتوي الضمانة الكافية للتهذيب الوطني الاخلاقي ؟ هل يظهر عنصرًا صالحًا للمدنية الحقّ ؟ هل يقوم ، اخيرًا ، بالتربية الوطنية ؟ هو ما أحاول الجواب عنه ، عارضًا ، على اسلوب موضوعي بحت وبشيء من الصراحة المؤلمة ، نتائج تحقيق دقيق قمت به في المدارس وكتبها ومناهجها ، دون ان آمر بتديريها واساتذتها ممن قد يهمهم تجميل الحقيقة وتحسين الواقع .

لقد وقفنا ، اول من أمس ، على رغبات مديري التعليم ، وآمال من يهتمون

به . فلنقف اليوم على سير هذا التعليم ، مجتهدين بقدره كما هو ، لا كما يشاء ان يكون ، ولا كما يشاؤون ان يظهروه لنا .

واني لأعتذر مقدماً ، إن يبدُ لكم هذا المشهد على شيء من الدُكنة . فاني لم ابالغ في الالوان ، كما اني لم احاول التخفيف منها . ذلك ان المشكل الذي يهمنا اليوم اوفر خطورة ، والجرح الذي يكلم لبنان اعمق غوراً ، من ان نرضى بعد باحتمال المسكنات والحلول الموقتة . لتكن لنا الجرأة على مواجهة الداء لنتمكن ، مخلصين ، من التفكير بالدواء الشافي .

لندع جانباً مدارس الاطفال ، تلك « الكتاتيب » القائمة في زوايا الجوامع ودور الكنائس ، او المستظلة بظل الخروبة الهرمة والسنديانة الشائخة . ولنهمل كذلك المعاهد الثنوية ، وشبه الثنوية ، وبعضها لا همّ له الّا حشو ذاكرات الطلاب طول السنة ، والتدخلات والترصيات زمنّ الامتحان ، ليولّد نهائياً « رؤوساً ملأى » اخرجها « العلم » عن مستواها الاجتماعي الطبيعي .

ولننظر الى المدارس الابتدائية وحدها ، فنجد فيها ١٣٥,١٧٥ تلميذاً بأهلون ١٣٥٦ مدرسة منها ١٦٢ رسمية . وليس في الكثير من هذه المدارس الّا معلم واحد يدرّس جميع المواد ، ويراقب التلاميذ من الساعة الثامنة صباحاً الى الرابعة او الخامسة مساء .

واذا استثنينا اكثرية المعلمين الرسميين الخارجين من دار المعلمين ، لا نكاد نجد في معلمي المدارس الابتدائية من تخرّج التخرّج المؤهل للتعليم . لقد أقاموا أنفسهم معلمين عندما اخفقوا في السعي لمهنة اوفر عائدة ولا يندر ان نرى مدرسة تُقفل ابوابها لأن المعلم وُفّق الى مركز في الجاندرمة ، او نجح في امتحان خفراء الجمارك . كما انه لا يندر كذلك ان نسمع بفتح مدرسة جديدة لا غاية لها الّا توفير بُلغة ضئيلة لشابّ عاطل عن العمل عجز عن كسب معاشه من مهنة اخرى ، على ما هو عليه من ادّعاء العلم . لا ابالغ ولا اخترع . انا اجمع حوادث واقعية ، عالماً ومعلناً ان كل مدارسنا الخاصّة لم تبلغ هذا الدرك .

على انه ، وان تكن اهليّة المعلمين التربوية — او عدم اهليّتهم — على

شيء من التفاوت ، فان مظاهر الشقاء في حياتهم املى تماثل تام . من مرشح البكالوريا التاعس ، الذي رسب في امتحان تشرين ففزع الى مدرسة في بلاد الشوف يعلّم فيها بعشرين ليرة لبنانية في الشهر ، لا يُضاف اليها أكل او شرب او منام ، فيحتال على المعيشة كما يحتال على التدريس وعلى الدرس،منتظرًا بفروغ صبر دورة حزيران المقبل ؛ الى معلّم القرية الهرم الذي شاخ في مدرسته منذ اربعين سنة يعلّم المواد نفسها متخبّطًا في الصعوبات نفسها ، من غير ان يرى معارفه تزداد فكرة واحدة ، ولا راتبه قرشًا فردًا . من ذاك الشاب اللاجئ الى التعليم الى هذا المعلم الشيخ نتحقق وجود كثير من هؤلاء الناس الذين ننعتهم بمؤدّبي الناشئة في بلادنا . ثم ان هذا المعلّم المسكين ليعدّ نفسه سعيدًا اذا توفّق الى ان يضيف على العشر او الخمس عشرة ليرة لبنانية التي ينقده اياها رئيسه الديني — بالاسم على الأقل — شيئًا من المقبوضات العينيّة كالبيض ، واللبن ، والسمن ، والزيت وما شاكل ، يهديها اليه اقلّ تلامذته فقرًا . وقد يصل هكذا الى ختام سنته المدرسيّة ، متّكلًا في المعيشة مدة شهري العطلة على الهواء الطلق والماء الصافي ، وعلى ما يغذيه من الأمل — أمل عجيب عنيد لا يتحقق ولا يملّ — بالسنة الجديدة .

أنستغرب بعد هذا ، وقد رأينا المعلّم يتخبّط في هذه الصعوبات ، أن يكون آخر ما يهمّه العمل على تهذيب تلاميذه التهذيب العقلي ، وأن يكون وراء هذا الآخر ، اذا صحّ التعبير ، السعي في تربيتهم الوطنية والاخلاقية ؟

بيد اننا يجب ان نستثني بعض المدارس الخاصّة في الاوساط المهمّة من التي يديرها المرسلون ، او تمدّها بالمساعدة بعض الجمعيات الخيريّة . ولكنها لا تخلو من النقد . وان يكن التعليم فيها افضل منه في المدارس السابقة ، فان التنشئة المدنية والتربية الوطنيّة على نقص واهٍ ، ولا سيّما في مدارس البنات منها . ولا تخلو كلّها من مساوئ واضحة إمّا بتعصّبها الطائفي الضيّق ، وإمّا بخلوّها التام من العاطفة الوطنيّة . على اني سأعود الى هذه النقطة في الكلام عن الكتب التدريسيّة .

واذا استثنينا هذه المدارس ، وضح أنّ نسل المعلّمين ، في هذه الاحوال

المادية والاخلاقية ، عرضة للاضمحلال والفناء في مدارس لبنان الخاصة .

وهل في ذلك ما يؤسف له ؟

وبمن يجب ان نستعيض عنهم ؟

وهل في مجموع المعلّمين الرسميين من يصلح لسدّ هذه الثلم ؟ فيضطلع بهذا الواجب الاساسي في انهاض بلادنا ؟

وهل اخرجت دار المعلّمين اللبنانية ، المؤسسة منذ ثماني سنوات ، رجالاً جديرين بتوجيه ناشئتنا جهة الوطنية الحق ؟

ليس من شكّ في ان معارف المعلّم الرسمي على ازدياد منذ ان وُجدت دار المعلّمين،وان طريقته العملية واسلوبه التعليمي على تقدّم،وأن حالة الصف الاجمالية أفضل مما سبق . ولكن ما القول في ضميره المسلكي ؟ في تعلّقه بالعمل ؟ في حبه لهذه الاسرة الكبيرة اي المدرسة ؟ في تجرّده للخير العام ؟ في رغبته الدائبة ، لا في خدمة وظيفته ومستقبله ، لا في خدمة الوزير والوزارة والدولة ، بل في خدمة الناشئة ، في خدمة الأمة ، في خدمة لبنان ؟

وماذا يمكن ان يقوم به افضل المديرين واخلصهم رغبة ، اذا ما وُجد في مدرسة رسمية مع معاونين لا يعرفهم ، ولم يكن له كلمة في اختيارهم ، ثم هم ، فوق ذلك ، عرضة لنقل لا سند له احياناً ، يصدر فجأة حتى في مجر السنة المدرسية ؟

وقد اطلعني بالأمس مدير احدى المدارس الرسمية الكبرى ، على مذكرة كتبها سنة ١٩٣٦ الى اساتذته يحضّهم فيها على تعزيز الروح اللبنانية في تعليمهم . أوَ أدلّ من هذه المذكّرة على نقص الروح الوطنية في تلك المدرسة ؟ ومتى عهد الناس الاعضاء السليمة بحاجة الى معالجة ؟ ثم انّ هـذا المدير نفسه طلب من رؤسائه ، في السنة ١٩٣٧ ، علماً لبنانياً ليرفعه ، كل صباح ، امام التلامذة مجتمعين فيحيّونه بانشاد النشيد اللبناني . وقد لا يستغرب احد اذا قلت انه لا يزال في انتظار العلَم ليمرّن تلامذته اللبنانيين على اداء هذا الواجب الوطني .

قيل : لا أمّة بلا روح ، ولا روح بلا تربية وطنية . أوَ نجدها هذه الروح

الوطنية في خريجي دار المعلّمين ؟ أو يُقرّنا الضمير المسلكي على الجواب بالايجاب دون احتياط ولا تحفظ ؟

اقول هذا مفكّرًا بذاك المعلّم ، الذي لا غبار على معارفه وسلوكه ، الّا انه يبذل الرخيص والغالي في سبيل نشر الدعوة لحزبه القومي السوري . وذاك الآخر الذي لا يرضى ، في تدريسه للتاريخ ، الّا كتاباً لم يرَ مؤلفه ما يقوله عن الامير بشير الكبير الّا هذه الكلمة : « وفي عهد احمد باشا الجزّار كان في لبنان الامير بشير الثاني المعروف بالمالطي . » (انتهى) .

ولِمَ لا يُهمل واجبه في تدريس التاريخ اللبناني ، وقد يرى ما يسنده في كتاب مدرسي شبه رسمي لا يتردّد في حذف لبنان من خريطة الشرق الادنى ، فيُلحقنا ، بجرّة قلم ، بالجزيرة العربية ؟

۞

كما يكون المعلّم ، يكون كتاب التدريس .

لقد تصفحت ستة وخمسين من هذه الكتب التدريسيّة بالعربية والفرنسوية ، تمثّل تقريباً كل ما يتناوله ابناء لبنان من غذاء تعليمي ، فيتمثّلون صالحه ، او يُسَمّون بخبيثه . وهي تنقسم كما يلي :

١٢ من كتب النحو والصرف وتمارينها ، ٦ كتب في دروس الاشياء ، ٥ في الحساب ، ١٨ من كتب القراءة ، ٨ في التاريخ ، ٧ في الجغرافية .

ولنقل كلمة عن الكتب الفرنسوية فنُكفى مؤونة الرجوع اليها . ونحن لا يهمنا فيها كتب الحساب ، ولا كتب النحو . انما نقف لدى كتب القراءة من تلك النصوص المختارة ، ولا سيّما كتب دروس الاشياء . وفي كلها نقص ظاهر من حيث الموافقة للبيئة . قد تكون هذه الكتب ممتازة بالنسبة الى المدارس الفرنسوية ، ولكنها بالنظر الى مدارسنا نرى فيها نقصاً ظاهرًا في اختيار الامثلة ، وفي وصف المناظر والمناطق المجهولة في بلادنا ، وكذلك في اسلوب الاتجاه نحو صغارنا ، وخطابهم على قدر عقولهم ، وبالتالي فهي لا توافق بيئتنا العقلية ، ولا محيطنا الاجتماعي . ولنرد ، رغبةً في تقرير الحقيقة كاملةً ، ان الكتب الفرنسوية الموضوعة في بلادنا ، وفقاً لمطلوب مدارسنا على زعم اصحابها ،

لا تظهر اكثر موافقة من الاولى .

اما كتب التاريخ والجغرافية فلا نتقد فيها عدم الموافقة . انما ننتقد روح الاستئثار . وها ان بعض المدارس الخاصة لا تزال تحصر هذا التعليم بتاريخ فرنسة وجغرافيتها ، على رغم ما ينصّ عليه المنهاج الرسمي . اننا لا نرى بأساً في ان يتعوّد شبأننا وفتياتنا الاشادة بفضائل القديس لويس ، وبطولة جان دارك ، وعظمة نابوليون ، او الاعجاب بجمال الثوج ، وجلال الألپ ، وعذوبة الشاطئ اللازوردي ، لاننا لا نرى في ذلك الّا مزيداً من الثقافة والذوق جديراً بكل تقدير . ولكننا نرى جديراً بالتقدير كذلك ان يُضاف الى هذا ، في تعليم ابناء لبنان ، معرفة مآثر فخر الدين الثاني وبشير الكبير ، وتذوّق جمال الآثار اللبنانية وجلالها من الأرز الى بعلبك . ولا نظنّ ان الامرين يتنافران ، ولا نرى الثقافة العامة الّا رابحة مستفيدة من هذا الجمع .

اما ان يظلّ صغار اللبنانيين يردّدون : « كان جدودنا الغاليّون من ذوي العيون الزرق والشوارب الشُقر » ، متصوّرين اولئك الجدود يحيطون بڤرنسجيتوركس في ثورته على الظلم والظالمين ، فهو أمر لا يقلّ غرابة و إضحاكاً عن ان نصوّر اصغارنا انفسهم أنّ جدودهم كانوا يقودون خيولهم وراء طارق بن زياد في سهول الأندلس ، او انهم كانوا يترنّحون على ظهور الفيلة حول هنيبعل قاطعاً جبال الألپ ، او أنهم كانوا يسيرون وراء الملك دكران على جبل أراراط !

تعدّد في الطوائف ، تعدّد في النزعات ، تعدّد في التواريخ .

واذا أمامنا لبنان الماروني منكفئاً في جبله الجليل يدافع عن مدخله بكل ما أوتيه من القوة والعزم ، ولبنان العربي يذيب شخصيته في نقطة ضائعة من الجزيرة الهائلة ، ولبنان الفينيقي يتغنّى باكتشافه الابجدية ووضعه أسس المدنية القديمة ، ولبنان - المأوى تلجأ اليه الاقليات جميعها فلا تتنازل عن امتيازاتها الخاصّة مدعيةً كلٌّ حديثة منها حقوق اقدم سكّانه واهليه . ولبنان - المختبر تتنافس فيه البعثات والارساليات الدينيّة والعلمانيّة ، مولّدةً لبناناً فرنسياً او انكلوسكسونياً او اميركياً ، او ايطالياً ، بل لبناناً روسياً ، او يونانياً ، او دانمركياً .

أوَ لا يكفي كلّ هذا لتعزيز الخطوط الانفصالية في هذه القسيفساء الحافلة

بمختلف المناحي والطوائف والمذاهب ، التي استعانت بالظروف المؤلمة ، لسوء الحظ ، فتحولت عقيدة مقدسة ونبتت في اساس دستورنا السياسي التاعس!

أو لا يكفي كل هذا لتغذية تلك المناقشات التافهة الوخيمة في أصول اللبنانيين وصفة لبنانهم ؟ أفنيقي هو ؟ ام عربي ؟ ألاتيني ام ماروني ؟ ام سني ام شيعي ام درزي ام ارمني ؟ كلها فرضيات ونظريات نراها تنتقل من بيئة الى بيئة يناقش فيها ويدافع عن كل منها ، لسوء حظ اللبنانيين . ولكل منها الدعاة والمتحزبون ، وكل حزب بما لديهم فرحون . الا فكرة واحدة قد تكون هي الصحيحة وحدها ، وهي ان لبنان لبناني ، وان امة تريد ان تعيش في وجه الشمس لا حاجة بها الى استعارة ثوب غيرها .

لقد قلت ، واكرر القول ، اني لا اخترع شيئاً في كل هذا . بل أتحقق ما تنشره كتبنا التدريسية من روح فاسد . تلك الكتب السخيفة المخجلة ، المفتقرة الى الاخلاص والامانة ، الراشحة بالتعصب الذميم الضيق ، والمطلة بالدعاوات الطائفية . كلها كتب طائفية في حين ان لبنان بحاجة الى كتاب وطني .

بيد ان الروح الوطنية الفسيحة المرمى ، اللطيفة المدخل ، لا تكفي وحدها في وضع الكتاب المدرسي . لا بد من ان يعاونها الفن التأليفي ، والاسلوب التعليمي ، والاهتمام بالاخلاقيات . فما القول اذاً في بعض كتبنا المدرسية ، من التي لا تصلح للتدريس مع انه لا غبار على نزعتها الوطنية . ذلك ان مؤلفيها ، وقد شاؤوا تنويع المنتخبات الشعرية ، شحنوها بمقاطع من الغزل الفاحش ؛ او أنهم اكثروا من حكايات اللصوص و« الشطّار » من اولئك الذين يحتالون على الناس ، فيفسدون الامانة ويسلبون الحقوق ، ويتسللون اخيراً من كل تبعة او عقاب ، واذا بهم مثال الدهاء و« الشطارة » . وما القول في كتاب اراد صاحبه الا يمس فيه ديانة ما ، فتوصل الى ان يمس الديانات جميعاً بتجنبه كل ما يشتم منه العناية بالاخلاقيات والواجبات الدينية . وقد يكون النقص ناتجاً من سوء التأليف ، كما في كتاب متعدد الاجزاء ، مفروض التدرج ، وفيه يظهر الجزء الثالث اسهل من الثاني بكثير . واني لا ازال اذكر مجموعة أخرى شاء مؤلفها

ان يجدد فيها بان يجعلها عصرية مشوقة فما كان منه الآن أهمل دون تمييز كل تراثنا الادبي القديم ، مستعيضاً عنه ، في تنشئة ذوق التلاميذ ببعض مولدات المعاصرين من تلك التي اقل ما يقال فيها أن النقد لا يزال حائراً في الحكم عليها . أو يمكن ان نتصور كتاباً يؤلف لتثقيف صغار الفرنسويين ، فيطرح جانباً آثار كورنيل وراسين ولافونتين ، ليتملق بمولدات موريس روستان ، وجان ايكار ، وراوول بونشون ؟

ولا بدّ من الاشارة الى الدافع المادي الذي اهاب وحده ببعض الناس الى تأليف الكتب المدرسيّة . وغنيٌّ عن البيان أن كتاباً موضوعاً ليُباع في بيروت ، ودمشق ، وبغداد ، وعَمّان ، ورباط ، وتطوان ، معاً ، لا يمكن ان يمتاز بصفات خاصّة ، فيوافق بيئة من التلامذة محدودة . واذاً فلا بدّ من ان يهتمّ المؤلف بوصف مناظر خياليّة ومناطق وهميّة يزعمها مشتركة بين هذه البلاد جميعها ، وهي في الحقيقة لا توافق واحداً منها . او ان يلجأ الى الاغتراف من مجاميع الحكايات العربية القديمة ، من تلك التي راقت الاجيال الماضية في القرون المتعاقبة ، دون ان يكون لها سند في نقطة معيّنة من هذا الكون الفسيح .

وأيّة قيمة لكل هذه الكتب ؟

على اننا لا نهمل الاشارة الى ما امتاز به الكثير منها من التقدّم بالنسبة الى كتبنا التدريسية قبل عشرين سنة . فان مظاهر الطبع ، والإخراج ، والتصوير ، والاهتمام بشرح النصوص والمفردات الصعبة ، وتنويع التمارين ، لجهود جديرة بالذكر يشكر عليها اربابها .

◎

وننتقل من كتب القراءة والتاريخ والجغرافية الى كتب الصرف والنحو .

منذ ان نشأ النحو ــ والنحو العربي خاصّة ــ نشأت النقود والمناقشات والمشاحنات . ولم يكن مرور الزمن الّا ليزيدها نشاطاً وسلاطة . حتى اصبحت تلك القاعدة ، او تلك الشاذّة ، وقد ظهرت لفلان لا اهمية لها ولا مجال في الاستعمال ، تبدو في اعلى درجات الخطورة لناظره . واذاً فيجب على التلامذة ، وقد أُصيبوا بدُوار هذه المشاحنات المستطيلة ، ان يحفظوا القاعدة ، وما شذّ عنها ،

وما شذّ عن هذا الشذوذ ايضاً. وقد رغب بعض الموفّقين في التخفيف من هذه الاعباء بتسهيل مبادئ العربية، فلم ينجحوا النجاح التامّ. وظلّت كتب النحو عسرة الهضم، سيّئة الاسلوب، وظلّ تدريس النحو العقبة الكؤود في سبيل التعليم الناجع.

اللغة العربية لغةٌ صعبة.

هي عقيدة يتناولها الناس مسلّماً بها، فيقرّونها مغمضي العيون، ويردّدونها بسكينة من اطمأنّ ضميره الى انه بذل جهده في مقاومة القدر المعاكس، فلم ينجح. واذا بنا نرى كل شيء صعباً في اللغة العربية: الصرف، النحو، المفردات، التركيب، الاصول، حتى القراءة... ثم نجود بأحكامنا هذه على الناس، فنقيم مظهراً من المجد والفخار لمن يتقن العربية، وشيئاً من العذر والتجاوز لمن لا يتقنها...

على انها لغتنا الوطنيّة. ونحن، وان تكلّمنا عن لبنان القائم جسراً بين الشرق والغرب، عن لبنان المتّجه نحو البحر المتوسّط (ذاك البحر الذي لا نراه اقرب الى الغرب منه الى الشرق) عن لبنان المتعدّد الألسن، فاننا نقرّ هذا على شريطة ان يكون المركز الأول، في هذه الالسن المتعدّدة، للساننا الوطني.

ونحن، وان نُخِف اللغة الفرنسوية ضيافة سمحاء في تعليمنا الثنوي والعالي — على انها ضيافة نفعيّة، والحق يُقال، لاننا قد نستصعب تدريس العلوم العصرية والفنون المتقدّمة يوماً عن يوم، كما نستصعب وصولنا الى مستوى العلم العالمي، باستعمال اداتنا السامية القديمة وحدها — فلا بدّ لنا من إقرار لغتنا وحدها في أسّ تعليمنا الابتدائي. لا ننفي من التعليم سائر اللغات. ولكنّ نظرة دقيقة الى ما نلناه من نتائج في مدارسنا الابتدائية، رسميّة كانت او خاصّة، تدفعنا الى الميل نحو توحيد اللغة في السنتين الأوليين من التعليم الإعدادي، على الأقل. فلا نرى عندئذٍ خرّيجي مدارسنا الدينية خاصّة، ولا سيما خرّيجاتها، يغتبطون بانهم لا يفهمون الّا الفرنسوية؛ حين انهم، في الحقيقة، لا يفهمون

فهماً دقيقاً لا هذه ولا تلك من اللغتين .

ولكن ما العمل بالمنهاج ؟

المنهاج الذي يفرض العربية والفرنسوية منذ السنة الاولى من التعليم الابتدائي ؟ المنهاج الذي يطلق الحريّة في تدريس بعض الموادّ ، فتُلقى موادّها إما بالعربية وإما بالفرنسوية . فتكون النتيجة انها تُدرّس باللغتين معاً ، وفقاً لقدرة المعلّمة (واخصّ الكلام بمدارس البنات) البارزة بغنى مفرداتها الفرنسوية ، وتعوّدها جمع هذه المفردات بجمل عربيّة النسق . واذا بنا نسمع ، حتى في امتحانات البكالوريا ، في مادّة التاريخ والجغرافية ، اجوبة مضحكة تتشابك فيها اللغتان وتتساندان على اسلوب عجيب غريب . وكأنها أمثلة متقدمة لما ستكون عليه لغتنا ، بعد خمسين سنة ، ان لم نتدارك هذا الخطر فنسرع باصلاح مناهجنا المدرسية اصلاحاً جديّاً حاسماً . ولا يخفى ان المناهج توضع في خدمة التعليم ، وليس التعليم في خدمة المناهج . حتى اذا ظهر تنافر بين حاجات التعليم والمنهاج ، كان الخطأ من المنهاج وحده فوجب تغييره او اصلاحه .

وكما اشرنا الى هذا النقص البارز في موافقة حاجات التعليم ، يجب ان نشير الى ما يتّصف به المنهاج من نقص في الناحية العملية . لقد شهدنا ، لسنتين ، امتحانات احدى عشرة طالبة لبنانية في فحص الشهادة الابتدائية ، سُئلن جميعهنّ ، في مادة التعليم العملي ، عن كيفية صنع الخبز . فكان ان تسعاً منهنّ أهملن ذكر الملح . ولم تكن مشكلة الملح من المهملات في بلادنا اذ ذاك .

ومعلومٌ انّ المعلّمين والمعلّمات يشاركون المنهاج في تبعة هذا الإهمال للشؤون العمليـة ، على انهم لم يكونوا لينصرفوا الى التعلّق بالنظريّات ، لو كانت الناحية التطبيقية في التعليم الابتـدائي ، ولا سيا في التعليم المنزلي ، واضحة التحديد ، بارزة الاتجاه .

ثم الا يتّسع المجال ، الى جنب التعليم المنزلي ، لتعليم زراعيّ يكون اجدى من ذلك العمل الرمزي القائم بغرس نبتة ، كل سنة ، في اول احد من

كانون الأول ، والذي لا يمثل في نظر التلميذ — وغالباً ما يكون في نظر المعلم ايضاً — سوى يوم فرصة تعطل فيه الدروس ؟

ينبغي للتعليم الزراعي في مدرسة القرية ، ان يتساوق مع التعليم التاريخي والجغرافي ، مع احترام التقاليد المحلية ، والعيشة العائلية . فترمي كلها الى تعزيز علاقة الولد بمحيطه ، بأرض آبائه واجداده ، فتصرفه عن المدينة وعمّا فيها من تجاريب ومخاطر . وكيف القيام بذلك ، اذا اتكلنا على معلّم غريب عن المنطقة ، تائه في محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذي نشأ فيه ، او الذي بناه خياله ؟ حتى اذا سنحت له فرصة عيد او يوم عطلة ، أسرع نحو المدينة الجذّابة ، ولم يعد منها متذمّراً الّا على اليقين بانه ترك الجنة لتلك المنطقة اللعينة . وكيف تريدون الّا تؤثّر هذه المرارة المؤلمة في تلاميذه — وقد يكون على غير قصد منه — فتدفعهم الى تذوّق هذه المدينة المجهولة الجذّابة ، معزّزةً فيهم دُوار التمرّد والانفلات .

وقد يطول بنا الكلام اذا تتبعنا اقسام المنهاج الابتدائي جميعها . فنتخطى الصبر بتفصيل انتقادات مهمة ولكنها مما لا يتّسع له مجال هذه الاحاديث . فاذا استقامت نيّة حكومتنا في اصلاح التعليم ألّفت لجنة من ذوي الاختصاص تقوم ، دون شكّ ، بعمل جزيل الفائدة .

ولنكتفِ الآن بسبر ثلاث نقاط من منهاج دار المعلّمين والمعلّمات .

النقطة الاولى : في باب الاخلاقيّات والمعلومات المدنية . اننا نفتّش عبثاً ، في هذا الباب ، عن مركز الاله الخالق ، والنفس البشرية ، وأسّ المسؤولية الاخلاقية .

النقطة الثانية : في باب اللغة والآداب العربية . أوَ ليس عجيباً ان هذا التعليم المُلقى على معلّمين لبنانيين ، لا يتبسّط في ذكر الدور العظيم الذي قام به اللبنانيون في نهضتنا الادبية الحاضرة ؟

النقطة الثالثة : في باب التاريخ والجغرافية . وهنا يسهل القول ويطول ، حتى لا نقول شيئاً .

بيد اننا ، اذا استثنينا هذه النقاط وامثالها من النواقص التي يسهل تداركها ، نرى دار المعلمين اداة الخلاص الوحيدة التي يمكن ان يُستند اليها في اصلاح تعليمنا الابتدائي ، على شريطة ان يُبادَر اولاً الى إصلاحها هي ، فتُدخل فيها بعض التحسينات الجدّية .

من ذلك انه ينبغي ان تحتلّ مكاناً خاصاً بها . وقد كان من همّ حكوماتنا السابقة انها فكّرت بانشاء « المشاتل » الزراعيّة ، والمؤسسات لتحسين نسل الخيل . فلا بدع أن نأمل من حكومتنا الجديدة بان تهتمّ اولاً بتحسين نسل المعلّمين .

فاذا كان ذلك ، أمكننا ان نرى الى جانب قاعات الدروس ، في هذه الدار الجديدة ، بستاناً صغيراً ينصرف فيه الطلّاب الى تطبيق دروسهم الزراعيّة ، تلك التي ظلّوا يمارسونها الى اليوم ، على المقاعد الخشبيّة . واذا أُلحق مطبخ مرتّب بهذه المدرسة ، سهلت مهمة ارباب التعليم المنزلي ، ذاك التعليم الذي يلحقه المنهاج "بالاعمال اليدوية" خاصاً بها ساعتين في الاسبوع ، والذي لم يكن اجراؤه ، حتى اليوم ، الّا على الورق .

اذا تمّ هذا الاصلاح في بناء دار المعلّمين ومعدّاتها ، وفي منهاجها ، وفي ادارتها خاصّة ، حقّ لنا ان ننتظر الخير الكثير . عندئذٍ تفتح ابوابها لمرشّحي التعليم في المدارس الرسمية والمدارس الخاصّة كذلك . فيرتّما هؤلاء معيّنين ، من قبل رؤسائهم الدينيين ، ولكنهم يخضعون لأنظمة المدرسة المختلفة في المباريات ، وامتحانات الاجتياز ، والشهادة ، شأنهم في ذلك شأن الطلّاب الرسميّين . حتى اذا نالوا شهاداتهم ، انتشروا يطبّقون الطرق التربوية نفسها في مختلف مدارسهم الخاصّة . وقامت الحكومة بدفع رواتبهم كما تدفع لمعلّميها انفسهم . وهكذا تُحلّ مشكلة الاعانات المدرسية العويصة ، تلك الاعانات التي يتبارى رؤساء الاديان في المطالبة بها كثيرةً متتابعة . فبدلاً من أن توزّع عليهم اموالاً ، كما هي الحال اليوم ، تُوزّع اشخاصاً ، اذا صحّ التعبير ، اي معلّمين حائزين على الشهادة التعليمية يعيّنهم اولياء المدارس الخاصّة ، ويقوم بتعليمهم وتهذيبهم التربوي اولياء المدارس الرسمية .

هذا المبدأ في التعاون التربوي بين نوعَي التعليم تستند اليه الشريعة الانكليزيّة

في هذه الشؤون . وقد ادّى الى افضل النتائج حتى اليوم .

مَن طلب الاعانة رضي بالتفتيش والرقابة . ولا شكّ في انّه ، اذا أُنشئت دائرة رسمية للتفتيش تضمّ اعضاء لا نزاع في جدارتهم ، وسعة نظرهم ، واخلاصهم للمصلحة التعليمية ، وللروح الوطنيّة الحق ، خطا هذا التعاون بين التعليمين خطوة واسعة ، بل حقّ لنا ان نغتبط بضمانة استقراره . حتى لا تمرّ السنوات المعدودة الّا وتتغيّر الألوان الدكناء في هذا المشهد المؤلم . وبدلَ ان يكون لنا مدرستان متعاكستان ، تزجّ فيهما بابنائنا مضطّرين ، فتحتالان على الحياة ، جنباً الى جنب ، تتجاهل الواحدة وجود الاخرى ، اذا لم تحاربها ؛ تتقارب نزعاتهما شيئاً فشيئاً حتى تنصهرا في مدرسة واحدة تجمع بين حسنات المدرستين ، متخلّصة من سيئاتها . وعند ذلك ، بدل المدرسة الرسمية والمدرسة الطائفية ، يُصبح لنا مدرسة واحدة هي المدرسة الوطنية .



مظاهر الثقافة الفنيّة

في لبنان

عهد «المشرق» الى فريق من ذوي الاختصاص في تدوين مظاهر الثقافة في لبنان، فكان من خواطرهم ما يلي:

١

التصوير — الموسيقى — الراديو

التصوير

بزغ في لبنان فجر نهضة تصويرية جديدة شرعت معالمها تظهر في مجاليها المختلفة من معارض عامة وخاصّة الى منتوجات حافلة مستقلة واعمال تصويرية فنية هامة. ورغم حداثة عهدها، نشطت حركتها وأخذت تمتد وتتسع يوماً عن يوم مذلّلة العقبات التي تعترض طريقها، مفسحة المجال للوثوب نحو الفن وثبات واسعة موفّقة على يد نخبة الفنّانين اللبنانيين الموهوبين الذين كانوا في طليعة طلاب الاكاديميات الاوربيّة، والذين لا عذر لهم إن هم تواتوا عن تأدية رسالتهم الفنية ولم يستمرّوا في مقدمة رفاقهم في كل قطر ومصر.

ومما هو جدير بالذكر ان الجمهور اللبناني بدأ يتذوّق الفن ويهتمّ به فيتقاطر الى زيارة معرض تصوير، ويتسابق للتأمل في المظاهر الفنيّة المتنوّعة. وصرنا نرى احياناً بعض المنازل مزيّنة الجدران بلوحات من ريشة مواطنينا، كما ان الاكليروس، الذي كان يكتفي لسنوات خلت ببعض ممسوخات اوربيّة تأتيه على الغالب مزيّفة، أخذ يكلف الفنانين اللبنانيين وضع صور للكنائس والمعابد والاديرة... ولا بدع بذلك فان الكنيسة كانت، منذ أقدم عهدها، وما



زالت تشجع الفنّ وتحضن الفنانين وتوحي اليهم بشتى المواضيع واساها، ولولاها لما كان ميكالنج ورفائيل واقرانهما...

وقد أسفر هذا الميل الجديد عن شغل الفنان صليبا الدويهي نحو حولٍ كاملٍ في كنيسة المقر البطريركي الصيفي في الديمان، فأتى، على ما يقال، بعمل فني جبّار فريد بنوعه في هذه الديار.

وهكذا كلّف المهاجرون اللبنانيون في بيت شباب الشيخ قيصر الجميّل وضع تصميم لهيكل معبد السيدة في مسقط رأسهم، فاتحفهم فنّاننا بوضع مهيب، مذوق هو في الوقت نفسه غاية في البساطة والعظمة، وقد مهزه بصورة من النوع النافر لفادي البشر في حضن امه الحزينة مفعمة بالمعاني السامية والشعور الرقيق والاحساس العميق والعاطفة الدينية الجليّة، جديرة بالاعجاب والتقدير. (انظر الرسم ١ الى اليسار)

وهناك عمل ثانٍ للجميّل من نوع آخر لا يقلّ روعة وجمالاً عن الاول، هو لوحة القديس مارون. نفض الشيخ قيصر غبار القدم والتقليد والتقيّد عن الصورة

القديمة المعروفة لابي الطائفة المارونية لتزين كاتدرائية بيروت بصورة جديدة، كبيرة الحجم، متزنة الاقسام، محكمة التأليف، منسجمة التقاطيع، متلائمة الألوان طبيعية الامارات، عليها مسحة رائعة من القدسية والكمال والوقار، تمثل الموارنة ملتفين للصلاة حول ابيهم ومؤسسهم القديس، ضمن إطار بديع من الفن العالي.

ومن مظاهر حركة العام الفائت «معرض اصدقاء الفن الثالث» الذي جمع حسب عادته المألوفة اكثر المنتوجات الفنية اللبنانية والاجنبية. اذ عرض فيه كثير من المصوّرين لوحات عديدة متفاوتة القيمة والأهمية، الى جانب بعض النقوش للنحّاتين اللبنانيين الذين يتزعمهم، دون منازع، الفنان اللبناني يوسف الحويّك، وقد زرع المعرض «تنورًا» كأنها الزهور تتفتح بين الصخور.



الرسم ٢ : «راهب» للجميّل

امّا اللوحات التصويرية فيمكننا ان نذكر منها باعجاب: «غزلان» عمر الانسي التي تسرح وتمرح في حديقة بيته ذي «المدخل» القرويّ الساذج كما نراه في لوحة اخرى بين الصبّير الشائك. «وأشجار الكينا» خير دليل على سعة أفق صاحبها وانواره المشتة. وهو يحسّ حقيقة جوّ بلاده ويشعر بجمالها فينقل ذلك الى شاشته بفنّ مجيد وإخلاص وافر.

وهناك «مصنفة» و«راهب» فيليب موراني، الذي يدرس مواضيعه كما يتقن دقائق لوحاته وتفاصيلها (الرسم ٢) وعلى رغم ما قضى في



الرسم ٣ : « بدوية » لماري حداد

باريس من سنوات ، فاننا نراه يحافظ على صبغة ايرانية لطيفة فيبقى شرقياً بكل ما في هذه الكلمة من عذوبة ومعنى . وما القول في اشجاره التي



الرسم ٥ : «لبنانية» للجميّل

تتنسّم الحياة كأنها حديقة لا صورة .

و« مناظر » ماري حداد و« بدوياتها » وتصاويرها الدائمة المتانة الرائعة في كلاسيكيّتها العصرية وألوانها القويّة . . . (الرسم ٣)

و« بركة عين البركة » في شتورا الجميلة الاخراج ، البعيدة التوفيق و« الحمّال الكردي » وغيرهما كثيراً للآنسة بلانش عمون التي تدمّغ لوحاتها بطابع خاصّ مستقلّ استقلال شخصيتها الفذّة (الرسم ٤) .

و« حورانية » قيصر الجميل ، الفنية بألوانها الموسيقية ، و« عاريته » التي حملت الريحاني على القول : « لو جمعوا صور العاريات لزيّنوا بها العالم . اما اخوات هذه فقليلة . » وبالواقع انها درس عميق للجسم البشري العاري وبحث بسيكولوجي وتحليل نفساني يمثّل نوعاً خاصاً من الفن أصبح الجميّل عميده . يمزج حقيقة ملاحظاته وشعوره بسحر ريشته الناعمة وألوانه المختارة المتزنة . (الرسم ٥)



الرسم ٤ : بركة «عين البركة» لبلانش عمّون



الرسم ٦: « اهدني » للدويهي

ولا بدّ من ذكر صورتين لمكاروف فاضل تمثّلان فتاتين جمعتا البساطة والخفر الى حدّ بعيد ؛ وصورة رائعة لصليبا الدويهي خلّد فيها مثال الاهدني .

واخيرًا نذكر من الفنانين الاجانب اولئك الذين اهتموا بشؤون شرقية ، فعالجوا مواضيع وطنية ، وصوّروا مناظر محلّية . اولئك الذين عندهم فكرة صحيحة عن بلادنا وسكانها واهاليها لا اولئك الذين يدّعون باطلًا معرفة لبنان

دون ان يكون للوحاتهم صلة به رغم حياتهم الطويلة تحت سمائه الزرقاء .

وعلى كلٍّ فلا ننكر الفوائد التي يستفيدها الفن اللبناني من جراء المنافسة الاجنبية في هذا المضمار ، وان يكن لهذا الاختلاط حسنات وسيئات . ومن اللوحات التي تستحق الذكر :

« ناقرو العود » لدوبال ، و« الفجر » لوبياه ، و« عذراء وطفل » والاحداث للسور ، ومناظر لبنانية لمدام جوردانو ، وخليج جونيه ومرفأ صيدا ومناظر لبنانية كثيرة لغيرهم . . .



الرسم ٧ : - قهوة » لميشليه

وهناك مظهر آخر للفن ، على شكل جديد في بلادنا ، لاقى رواجاً كبيراً هو متحف ميشليه الفني الذي أحيا امام نواظرنا أجمل مواقعنا التاريخية وبعض مناظرنا الطبيعية وشوارعنا المحلية على وجهها الأفضل . كل ذلك بمزيج من الفنّ والظرف اللطيف ، وقد عُلقت على جدران القاعة بعض لوحات موفقة لهذا الفنّان الشيخ منها واحدة «في الطريق الى مكة» نشرت عنها نسخة مجلة « الالستراسيون» الفرنسية منذ نحو خمسين سنة ! (الرسم ٧)

نقف عند هذا الحدّ من الفنانين اللبنانيين والاجانب كي لا يطول بنا التعداد مكتفين بهذه المظاهر المختلفة للدلالة على مصير نهضتنا الفنية وحسن سير حركتها في لبناننا الفنّان الذي يكاد يكون بكراً من هذه الناحية .

وقديماً قال ألدوس هكسلي :

«لم يستطع احدٌ ان يعطي صورة كاملة عن منظر شرقي لان الفنان الموهوب والمثري كان لا يشعر بالحاجة الى السفر لزيارة الشرق وتصويره ، كما ان الفنان

الموهوب الرقيق الحال لا يمكنه ان يتكبد نفقات مثل هذه الرحلة .»

فهل يبطل الفنانون اللبنانيون زعم هكسلي هذا؟ ويحققون قول برغسون: اسمى ما يتوق اليه الفن هو اباحة الطبيعة! مستفيدين مما وهبت الطبيعة لبنان من جمال وسحر!

هذا ما سوف يكشفه لنا الغد ، على كلٍّ ان نهضة هذا مطامها لجديرة بالاحترام.

ج. ح.



الرسم ٨ : «كرديه» لبلانش عمّون

الموسيقى

طريقة مبتكرة جديدة

لتقسيم الاثني عشر بعدًا في الديوان الموسيقي

ان مسألة قسمة الابعاد في السلّم الموسيقي قد استرعت اهتمام الفلاسفة منذ القدم حتى يومنا هذا. فدرسها جمهرة من الفلاسفة والعلماء من امثال فيثاغوروس اليوناني، وصفي الدين العربي، وساليناس الاسباني، وموريس مانويل الفرنسي، وبروڤو البلجيكي. وبالرغم من الجهود العظيمة لم يتوفق العلم الى ايجاد حلّ نهائي لهذه القضية.

وقد وفق الاستاذ اللبناني وديع صبرا الى اكتشاف مقياس للابعاد، فحلّ بذلك أهمّ وادقّ المسائل الموسيقية، والقى في ١٧ نيسان سنة ١٩٤٠، في دار الكونسرڤاتوار الوطني، محاضرة عن تقسيم الاثني عشر بعدًا في الديوان الموسيقي ذكر فيها كيفية تقسيم السلم الطبيعي والتقسيم ذي الضبط التام (Système de la justesse absolue) والتقسيم الميزوتوتيكي الذي كان يستعمله الغربيون من القرن السادس عشر الى نصف القرن التاسع عشر حيث أبدل به التقسيم المتعدل (gamme tempérée) وجاء على ذكر تقسيم العلّامة برودان بروڤو وغيره من العلماء الحاليّين، وقد ذكر في نهاية المحاضرة، تفوّق الطريقة المتمّمة الجديدة التي اكتشفها وكان لديه آلة مونوكورد مثلّثة تعطي «الذمر» الموسيقية (les accords) بدقّة تامة فاسمع الحاضرين الفرق ما بين دوزان بيانو على الطرز العادي، وبين بيانو دوزنه على الطريقة المتممة الجديدة.

وقد كتب اليه العلّامة هنري رابو، مدير كونسرڤاتوار باريس ما فحواه: «ان اكتشافكم لا يقلّ اهمية عن تربيع الدائرة» وفي رسالة للعالم الموسيقي

المعروف في فرنسة ، الاستاذ بردان بريڤو (P. Pruvort) اطراء كبير لجهود الاستاذ اللبناني ختمه هكذا : « لا شك في ان اعمالك كاعمالك سيكون لها تأثير عظيم في مستقبل الفن الموسيقي العالمي الذي هو كالمجتمع في حاجة الى النظام والحقيقة » .

الموسيقى العربية اصل الفن الموسيقي الغربي[1]

أُعطيت هذه الرسالة في محاضرة القاها الاستاذ صبرا ، اولاً بالافرنسية في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القديس يوسف ، في ١٠ كانون الاول سنة ١٩٤٠ وثانياً بالعربية ، في دار الايتام الاسلامية ، في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٤١ .

استشهد المحاضر اولاً بكتابات اهم رجال العلم الغربيين في هذا الموضوع فقال : كتب اوجين بوريل (Eug. Borrel) رئيس الجمعية الموزيكولوجية في باريس : « ان معظم تواريخ الموسيقى لم يرد فيها شيء يذكر عن الموسيقى العربية . وجلّ ما هنالك ان بعضها يلمح اليها تلميحاً » ، وهي عادة الفتها الجامعات التي تحوّل معظم الاهتمام الى الدروس اليونانية واللاتينية والى كل ما هو اوروبي . اما ما يختص بالدروس العربية فيحسبونه خارجاً عن المناهج . وقال ايضاً ان هيغو ريمان (H. Riemann) في كتابه تاريخ الموسيقى اورد ما يأتي : « ان نظرية محمد بن عبد الحميد اللاذقي المختصة بالابعاد الموسيقية لهي ذات فائدة عظيمة لكونها تدعم نظرية اتفاق ثلاثية الماجور (La consonance de la tierce majeure) في زمن (القرن الرابع عشر) كان فيه علماء الفن الغربيين لا يزالون يستوحون نظريات علماء اليونان فيما يختص بهذه الابعاد .

ثم برهن بواسطة الارقام أن صفي الدين هو الذي اكتشف الديوان الفيزيكي المستعمل عند الغربيين والذي هو اصل فن الاصطحاب او المساوقة (l'Harmonie) وقال « اذا يستطيع العرب ان يفاخروا باكتشافهم نغمة

---

١) نشرت هذه الرسالة باللغتين العربية والافرنسية معاً وهي تطلب من جميع مكاتب بيروت .

الماجور الطبيعية التي هي اصل السلم الفيزيكي الذي لم يعمل العالم الغربي الكبير (جيوزفو زرلينو) (G. Zarlino) الذي جاء في القرن السادس عشر سوى انه اظهر افضلية هذا الديوان الذي وضعه العرب قبله باربعمائة عام .

واهم ما تحتويه هذه الرسالة طريقة مبتكرة للتمكن من عزف الدواوين الموسيقية التي كانت مستعملة في عهد الخلفاء .

وتكلم الاستاذ صبرا من بعد ذلك عن المعلومات التي ادلى بها العالم التركي رزوف يكتا عن التناقض الموجود بين علماء الشرق والغرب في تفسير ما كتبه فلاسفة اليونان والعرب باثبات علامات السلم الموسيقي ذاكرًا ما كتبه الموسيقي الافرنسي الكبير كميل سانساز (C. Saint-Saëns) في احد مؤلفاته « اننا نحصي ونعرف الكروماتيات (الكروما تسع البرج) لكننا لا نستعملها ونكتفي بأنصاف الابراج لامزجتنا ، على ان الحقيقة الموسيقية ليست في طريقتنا المرتكزة على انصاف الابعاد المترادفة (كعلامتي دو دييز وري بمول مثلًا التي جعل الافرنج منهما علامة واحدة) التي ليست الّا طريقة تقريبية ولا بد اننا لن نكتفي بذلك متى صارت يومًا ما اكثر دقة . حينئذٍ ينشأ فن جديد ويصبح الفن الحالي كاللغات الميتة تبقى تآليفها ولكن لا ينطق بها . »

والفن الجديد الذي يعنى به الكاتب الافرنسي هو الفن الذي ابدعه علماء العرب في عهد الخلفاء العباسيين .

ثم فند المحاضر ما كتبه العالم الافرنسي جول روانه (Rouanet) في دائرة المعارف الموسيقية بأن الموسيقى العربية بقيت في جمود من ايام الفارابي الى يومنا هذا متخذًا من قوله حجةً عليه اذ اننا بسبب هذه الذهنية العربية المحافظة قد تمكنا من تناول الموسيقى التقليدية وتفهم الفارابي وصفي الدين ، وان الموسيقى التي تناولناها تقليدياً ستكون كالشبكة التي ستحاك عليها موسيقى المستقبل .

وختم الاستاذ صبرا هذه المحاضرة النفيسة بقوله : « فعسى ان تعطى الموسيقى العربية المقام الاول الذي تستحقه ، وان تعلن الاوساط الاوربية تفوّق النظريات الموسيقية العربية ، وكونها اساس الموسيقى العصرية الحقيقي . حينئذٍ يصير

كونسرڤاتوارنا اللبناني الصغير المتواضع بمقام « ڤيلامديسيس »[1] جديدة تنقل من الشرق الى الغرب تلك الموسيقى التقليدية التي اورثنا اياها اساتذة عظام والتي ستكون سبباً لتوحيد هذا الفن الجميل ، الذي قال عنه العالم الموسيقي الشهير برودان بريڤو هو، كسائر الاوضاع البشرية ، بحاجة الى النظام والحقيقة .

و . ص .

الموسيقى الدينية

شهدت بيروت ، في السنة الفائتة ، ثلاث حفلات سماعية للموسيقى الدينية ، اقبل عليها جمهور المثقفين برغبة متزايدة .

منها السماع الذي قام به الاب بولس پنسمايل (Pincemaille) على أرغن الكاتدرائية اللاتينية للآباء الكبوشيين، فكان متمماً لحفلة من الغناء الديني . وكان من اهم روائع السماع « رعائية » فرانك ، خرج منها الموسيقي الفنان على افضل ما يمكن من حذق ومهارة .

ومنها الحفلتان اللتان اقامهما السيد روبيار (Robilliard) مستخدماً أرغن كنيسة الجامعة اليسوعية . ولم يتناول منهاجه في السماعين الّا قطعاً أرغنية بحتة . وقد تشابه المنهاجان بكونهما جمعا قطعاً قديمة من ارباب القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، الى قطع حديثة لبعض معاصري الموسيقيين . فكان من اروع ما سمعناه مقاطع من تأليف كليرَمبو (Clérambault) وكوپران (Couperin) يليها « مدخل » باخ (Bach) و« رعائيته » وغير ذلك من آثاره الجليلة . واخيراً قطعة بطلية لقيصر فرانك المذكور آنفاً ، شعر الناس بما ضمّنه فيها الموسيقي الكبير من عراك عنيف بين روح الشرّ المتمثل بالموجة المتقطّعة الرهيبة ، والنغمة الملينة المطمئنة التي تمثل روح الخير . فتحققنا فيها تأثير واغنر الكبير .

ونذكر ، في الحفلة الاخيرة ، قطعة مهمة من تأليف السيد روبيار نفسه ، ادخلها بين آثار المعاصرين فكانت موضوع اعجاب الكثير من المتذوقين .

---

١) هي مؤسسة افرنسية في رومية يؤمها الافرنسيون الحائزون على جائزة التلحين الكبرى فيقضون فيها ثلاث سنوات لاكتساب طابع جديد لموسيقاهم .

الراديو

عهدنا الى طائفة من الاختصاصيين بدرس مظاهر النشاط الفكري في هذا الشاطئ الخصب من المتوسط ، وأمسكنا عن تكليف احد نقد محطة « راديو الشرق » الفتية . وهي — في تقلقلها بين عقم الهزال وتقبل ما هب ودب من معزوفات — كأنما تعمدت ان لا تنتسب الى موسيقى ، فلم تند عن هذا الشرط واحدة منها على اسم وديع صبرا او أركادي كوغل ، او أتله ، على اسم غاو يحمل شهادة من معهد موسيقي . ومن « محاضرات » لم يكن يلفظ الواحدة منها موهوب حتى تتوالى النكرات بالعشرات ، فتجيء اقرب الى فجاجات متعيش او علق على السياسة والأدب منها الى نتاج الخلق الفكري . ومن أناشيد تتحدى تارة ذلك البكاء الرخو من طقاطيق مصر الذي تربأ ان تنشره صحيفة هزيلة من صحف الأقاليم ؛ وتنفلت عليك طوراً ، باسم بعث التراث القومي ، وعلى ذمة طرح من المنشدين ، اغنية قديمة لم تمر عليها يد فنان تتألم منها العنجهي ذا الوتيرة المملة الواحدة . وتوجه الحلو النابض بحرارة الشعبية ، اذ تقديم الاغنية على مأدبة الفن شيء ، وتسجيلها برسم المتاحف كوثيقة تريخية شيء آخر . — أجل أمسكنا عن تكليف أحد نقد هذه المحطة الفتية وهي ما تزال غير خليقة بالنقد .

معهد الآداب الشرقية

في الفصلين الاخيرين من السنة الدراسية ١٩٤٠—١٩٤١

يسرّنا ان نعلن أنّ محفل «الرقم والآداب» الفرنسوي أقرّ، في جلسته المنعقدة بتاريخ ٦ كانون الاول ١٩٤٠، قبول الاب رنيه موترد اليسوعي، مدير معهد الآداب الشرقية، عضوًا مراسلًا في المحفل المذكور. ولا شكّ في ان هذا التعيين لدليل ساطع على ما يوليه «معهد فرنسة» من اعتبار للجهود التي تقوم بها جامعة القديس يوسف في تعليم الآداب الشرقية.

فرع التاريخ والآثاريات

القى الاب انطوان پوادبار اليسوعي في ٥ و١٢ شباط، محاضرتين، جال فيهما حول الحدود السورية في العهد الروماني والبيزنطي، تكلّم في الاول عن نظام الآبار والمزدرعات في ذاك العصر. وخصّ الثانية بالاساليب الرومانية والبيزنطية في الحروب الشرقية.

وفي ٢٦ و٢٨ اذار ألقى الاب هنري شارل اليسوعي محاضرتين كذلك في «تحضير البدو بين الفرات والبليخ» درس الموضوع من نواحيه الجغرافية، والعنصرية، والاجتماعية.

فرع الأدب العربي

تابع الاستاذ فؤاد افرام البستاني محاضراته في «الفنون الادبية في العصر الجاهلي»، مساء كل خميس، متناولًا مظاهر هذه الفنون جميعها من «الإنشاد» او الفن الشفهي الاصيل، الى فروعه من اسجاع، وخطب، وامثال وقصائد،

مفصلًا البحث في انواع القصائد من فخر ، وغزل ، ورثاء ، ومدح ، وهجو ، منتهياً بآداب الجنّ واساطيرهم ، خاتمًا بنظرة اجمالية في الحضارة الجاهلية .

وقد نُظّم امتحان لطلّاب السنة الثانية من هذا الفرع نجح فيه ثمانية طلّاب هم السادة : جبر الاطرش ، من المجيمر (جبل الدروز) ، بعلامة « جيّد » . وموضوع أطروحته : ابن هاني الأندلسي والعقائد الاسماعيلية .

الشيخ علي الزين ، من النبطية ، بعلامة « جيّد » . وموضوع اطروحته : تطوّر الادب في جبل عامل .

جميل صوايا ، من الشوير ، بعلامة « حسن » . وموضوع اطروحته : مجنون بني عامر .

احمد يوسف حمّود ، من الناعمة ، بعلامة « حسن » . وموضوع اطروحته : وجود مجنون ليلى .

شفيق الارناؤوط ، من صيدا ، بعلامة « حسن » . وموضوع اطروحته : العاطفة في الشعر الجاهلي .

عبد الوهاب كلزيه ، حلب ، بعلامة « حسن » وموضوع اطروحته : الهوى العذري : جميل بن معمر .

معلّى احمد غانم ، من الجبيريقة (بلاد العلويين) ، بعلامة « مقبول » . موضوع اطروحته : النبوءة في الشعر الجاهلي .

شفيق مالك ، من راشيا الوادي ، بعلامة « مقبول » . موضوع اطروحته : تصوّف ابن الفارض .

دراسة فقه اللغة العربية والألسنية

توالت التمارين في هذا الفرع وفقاً للمنهاج المنشور سابقاً . وقد نُظّم امتحان في آخر السنة نجح فيه اثنان هما :

الأب سامي خوري اليسوعي ، من جزّين .

السيد مبارك عون من الدامور .

وقد ألقى استاذ هذا الفرع ، الاب يوسف عضم اليسوعي ، في ٢٩ كانون الثاني محاضرة موضوعها : « هل من فلسفة عربية ؟ » .

الفرع اللاتيني

كانت مادة الدرس في هذا الفرع « أهاجي جوڤينال » و« رسائل شيشرون » . وان يكن جوڤينال أقل شاعرية من ڤرجيل ، الّا ان درسه لا يخلو من فائدة لما يمتاز به من تجديد في الموضوعات الاخلاقية ، ومن تنوّع في التعبير الحيّ الدقيق .

اما رسائل شيشرون فوثائق ثمينة لتاريخ الجمهورية الرومانية في زمن تفسّخها وانحطاطها . وقد يمكن المؤرخ ان يتتبع حوادثها اسبوعاً فاسبوعاً بالاستناد الى هذه الرسائل القيمة .

وفي امتحان آخر السنة نجح ثلاثة طلّاب هم السادة :

جوزف حجّار

جورج كازوپولو

الاب غوانخ

فرع الشؤون الارمنية

توالت الدروس في هذا الفرع حتى شهر ايار . وكان اهمّها ثلاث محاضرات باللغة الفرنسوية موضوعها : « هندسة البناء الارمنية » . في مظاهرها المتنوعة دينية ومدنية ، القرن الرابع الى القرن الثالث عشر ، ولاسيما منذ دخول العرب ارمينية . وقد فصّل المحاضر ، الاب يوحنا مصريان اليسوعي ، علاقة الفنّ البنائي الارمني بما أتى به العرب ، كما درس علاقة هذا الفنّ بالفنّ الغوطي ، وما جاءها من عناصر الفنّ الفارسي القديم ، والفنّ السوري المسيحي ، ومن بعض المناطق الاوربية كفرنسة وايرلندة .

اما ما بقي من الابحاث فتناولت تاريخ ارمينية وآدابها ومؤسساتها في العهد نفسه ، ولاسيما نظامها الاقطاعي على عهد العرب حتى الغزوة السلجوقية .

بعض المخطوطات العربية

التي دخلت المكتبة الشرقية

في خلال هذا العام (وجميعها اتت من حلب)

بقلم الاب ترتل اليسوعي

الغنية لطالبي الحق عز وجل

(٢١×١٥) مجلد مجلد احمر قاتم بنقوش . راجع ما كتب عنه بروكلمان ١، ٤٣٥ في تاريخ الآداب العربية، وسركيس ص ٧٢٨ في معجم المطبوعات.

طُبع الكتاب في مصر وفي مكة وهو لعبد القادر الجيلاني الشهير مؤسس الطريقة القادرية في التصوف. وهذا المخطوط كان يُستعمل في زاوية الحريري ثم في زاوية الرفاعي في حلب سنة ١١٩٠ . وعدد صفحات الكتاب ٥٦٠ وقد سقط منها بضع صفحات. وفي كل صفحة ٢٥ سطرًا، بخط نسخي وحبر اسود واحمر — والغاية منه « معرفة الآداب الشرعية من الفرايض والسنن والهيئات ومعرفة الصانع عزّ وجلّ بالآيات والعلامات ... ومعرفة أخلاق الصالحين » (ص ٢) .

وقد يذكرنا هذا الكتاب بكتاب رودريكس اليسوعي الشهير في «الكمال المسيحي» لا لتشابه المادة ولكن لتشابه الاسلوب بينهما.

وجاء في آخره : وكان الفراغ من تتميم هذا الكتاب المبارك نهار الخميس في آخر جمادى الاولى من شهور سنة ثمانية وثلاثين ومائة والف على يد الفقير خليفة بن محمد . . . بلغ مقابلة بحمد الله وسبحانه على حسب الطاقة والامكان.

كتاب اللمعة في حل الكواكب السبعة

للشيخ شهاب الدين ابن احمد بن غلام الله. (٢٠×١٤،٥) مجلد جلدي عدد صفحاته ٨٤ وعدد اسطر الصفحات ٣٢ بخط نسخي وحبر اسود واحمر جاء ذكره في بروكلمان ٢، ١٢٧ جاء في اوله : « وبعد فاني لما رأيت اهم من طلب العلم قد تقلص ظلها ... التفت كتابي المسمى نزهة الخاطر في تلخيص زيج الشاطر ثم

اختصره . . . وسميته باللمعة . . . بالجداول لانها اقرب للمتناول حاصراً الرسالة في اثني عشر فصلاً وجداول في ستين جدولاً » .

رسالة فوايد الفكر في الامام المهدي المنتظر

للشيخ مرعي الحنبلي

كراس (٢١ × ١٦) ٤٨ صفحة ١٧ سطراً بخط نسخي وحبر اسود . اوله : « حمداً لمالك الملك ومدير الفلك والنلك ومدبر امور الملوك والسلاطين » . . . واخره : « ومن اراد الوقف على ذكر تتمة الكلام على نزول عيسى عليه السلام وعلى ذكر بقية اشراط الساعة والنفخ في الصور فعليه بكتابنا بهجة الناظرين . كان الفراغ من تاليفه سنة ١٠٢٢ . . . وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة سنة ١٢٥٢ على يد احمد المكنا بالحالي الحموي وطناً الشافعي مذهباً النقشبندي طريقة العطار صنعة » .

مجموعة في علم الحساب والهيئة

كراس (٢٢ × ١٨) ١٠٠ صفحة ١٩ سطراً بخط نسخي وحبر اسود واحمر . اوله : « الفصل الرابع من كتاب كنز العلوم في تقويم الشمس والقمر . » ويتخلل الكتاب جداول ورسوم . ويليه في اخره رسالة بطريق الهندسة في عمل الدخامة المسماة بالدولة للشيخ محمد بن ابي الفتح الصوفي وبعدها فائدة جاء فيها : « اما بعد فهذه الدائرة مع الجدول الذي بعدها يعلم منها مداخل سنين الرومية وشهورها والكبيس والبسيط منها ومداخل الشهور العربية » .

في بيان اسامي سور القرآن وعدد آياتها وما هي مكية ومدنية

هو كراس (٢١ × ١٦) ١٦ صفحة بحبر اسود واحمر . في الصفحة ١٤ و ١٥ رسمان للفم ولمخارج اصوات الحروف منه افادة للتجويد في القرآن وتفسيراً للجداول الموجودة في الكراس .

كيميا

هذا كتاب في علم الكيميا. وتحليلات المواد الكيماوية التي لا يمكن العمل بدونها والتصفيات المعدنية والتركيبات وغيرها بجلد بجلد احمر قاتم (٢٠ × ١٤) ٤٢ صفحة ، ١٨ سطر في كل صفحة بخط نسخي متقن وحبر اسود واحمر. جاء في بدئه: «الباب الاول: في التعالج ومسالك الطريق في خروج الحكمة وتعديلها وفي ص ٦ الباب الثاني في تصفيات المعادن وفي ص ١٩ الباب الثالث في تكليس الاجساد على طريق البيض وفي ص ٢٩ الباب الرابع في الاكسير من الابريز وهو الذهب وص ٤١ فصل في صنعة ذهبية .

رسالة المفتاح لجابر

كراس مخطوط (٢٠ × ١٤) ٣٢ صفحة ، ١١ سطرًا في الصفحة بخط نسخي متقن وحبر اسود واحمر وازرق. جاء في اوله: نقل من رسالة المفتاح لجابر قال الامام جابر ان الشيء الذي دبره جميع الفلاسفة والعلماء والحكماء والقدماء انما هو شيء واحد . . . مركب من جوهرين ذكر وانثى . . . وان المصلح بينهما . . . هو حجر الفلاسفة المكتوم». وجاء في اخر الكتاب: «والابن والعبد حوى هي الزيبق البكر وهو بياض البيضة الكريمة البارد الرطب والله اعلم» .

كراس مخطوط

(١٦ × ١١) ٥٢ صفحة ، ١٣ سطرًا في الصفحة بخط نسخي وحبر اسود واحمر بلا عنوان . جاء في أوله «نكتب معرفة شهور الروم وتواريخهم وحساب سنينهم وعيادهم . تبارك من تفضل بالازل في الوجود . . .» وجاء في اخره : «فصل في الغالب والمغلوب والطالب والمطلوب من حكمة ارسطاطاليس الحكيم». وفي خلال الكتاب تعليقات على تواريخ الاعياد المسيحية ووقوع المنتقلة منها في بحر العام .

مجلد مخطوط

(١٥ × ١٠) مجلد احمر منقوش ١٨٨ صفحة باسطر يتفاوت عددها وبخطوط متنوعة. هو مجموعة اذكار واوراد وصلوات وكلمات وفوائد منها سحرية للشفاء من الامراض او لاتقاء الاضرار. جاء في اوله: «لا اله الا الله محمد رسول الله عبد القادر ولي الله. تمت وبالخير عمت». ويليه ص ٢ باب للبردية و٣ باب للسخونه و٤ شروط الذكر و١٢ حزب البحر للشيخ الشاذلي الخ الخ وفي الصفحة ٦١ رسالة عبد الغني النابلسي تشتمل على خمسين سؤالًا في علم التصوف وفي علم التوحيد. وجاء في اسفل ص ١٣٦: تمت على يد كاتبها الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ مصطفى الفرجي الحموي القادري طريقة ١٢٤٨ هـ. راجع سركيس، معجم المطبوعات، ص ١٨٣٢ في ترجمة عبد الغني النابلسي.



مطبوعات جديدة

HENRY HABIB AYROUT, S. J., Mœurs et coutumes des Fellahs. Préface de M. André Allix, Professeur à l'Université de Lyon, 1 vol. in-8°, x+190 pp., 32 photographies. [*Collection d'études, de documents et de témoignages pour servir à l'histoire de notre temps*], Paris, Payot, 1938, Prix : 25 fr.

« الفلاح المصري : اخلاقه وعاداته »

اذا اردت ان تقف على بعض مظاهر الهيئة الاجتماعية المصرية الحديثة ، فلا بد لك من مطالعة هذا الكتاب للاب هنري عيروط اليسوعي . ففيه تجد معلومات جغرافية وزراعية واقتصادية لا غنى عنها لمعرفة معيشة الفلاح الفردية والعائلية والاجتماعية. تجد معلومات مستنتجة من ملاحظات واختبارات شخصية ، لان المؤلف من البلد الذي درسه ولانه ايضاً ، بحسب دعوته الدينية ، يعيش بالقرب من الفلاح فيصغي الى كلامه ويتأثر عند اناته وشكاويه .

يدور الكلام في هذا الكتاب حول نقطتين جوهريتين متناقضتين هما عمران مصر بسبب ازدهار الزراعة ، وتقهقر الفلاح ، العامل الاوحد في سبيل هذا العمران .

ان مصر من اغنى البلاد العالمية بالنسبة الى مساحتها وعدد سكانها ، اذ هي من البلاد القليلة التي يغلب فيها التصدير على التوريد . وهي تجمع في خزينتها اكثر من ٣٣ مليونا ذهباً كل سنة .

بيد ان الفلاح لم يزل على ما كان عليه في عهد الفراعنة . كان فقيراً ومريضاً ومستعبداً ، وظل فقيراً ومريضاً ومستعبداً ، لا نواه يقاوم رؤساءه لان السلطة التي اعتاد ان يأخذ باوامرها دون ما مجادلة ، ادت به الى عبودية اغلقت بصره وجعلته يجهل ان له حقوقاً يمكنه ان يطالب بها .

يعيش الفلاح في فقر مستمر لانه ابداً اجير بارض غيره . يندفع بكل قواه الى العمل فيرى المتسلكين يتدرون عليه لانهم لا يقدرون اتعابه ولانهم يحسبونه منتجاً خلق لخدمتهم .

بيد انهم يعيشون بالرفاهة في المدن كالقاهرة والاسكندرية فلا يعرفون

من المزارع والحقول سوى ما تشاهده اعينهم الجشعة من نافذة العربة او القطار . ينتظرون المال في بيوتهم فيأتيهم رنانًا . يتفرّجون ويقضون غالبًا فصل الصيف في اوروبة ثم يبذرون في ليلة واحدة ما يكفي لاعاشة فلاح مدة السنة .

ان مصر الحديثة ، مع عمرانها وازدهارها ، مرتكزة بكاملها على الطبقة الفلّاحة . وهذه الطبقة تجمع اكثر من ثلاثة ارباع السكان جميعهم يتألمون من امراض يلتقطونها من الارض ، لان الارض التي يندفعون اليها بكل قواهم تبث في اجسادهم جراثيم تجسّمت فيهم فصاروا يتناقلونها ابًا عن جد . شوهت وجوههم وهزلتهم وقادت بالنصف منهم الى الهلاك . ولو لم يكن الفلّاح ممن يريدون النسل والاولاد ، لما ارتفع عدد السكان في مصر من خمسة ملايين الى ١٦ مليونًا في اقل من قرن واحد .

اما الاولاد فان النصف منهم يموتون قبل تجاوزهم العاشرة . لان « السفلس الدموي » الوراثي يضعف قواهم ويجعلهم عاجزين عن مقاومة الجراثيم وهم في الصغر . وتثبت لنا التقاويم الرسمية ان الاولاد الذين يموتون قبل العاشرة يبلغون ٦٥ بالمئة من مجموع الوفيات . اما الامراض التي تترك اسوأ اثر فهي امراض العين والمعدة والمجاري البولية : تصيب اكثر من الثمانين بالمئة في بعض المديريات .

اضف الى كل هذا الجهل الرائع الذي يتصف به الفلاح . واذا قلنا ان الفلاح جاهل ، وان مصر لم تصنع شيئًا لتثقيفه ، فهذا لا يعني اننا نطالب بتدريس العلوم والرياضيات والاختراعات والمذاهب الفلسفية الحديثة لان الانسان بغنى عنها . انا نطالب بتعليم تلك الامور الانسانية التي لا يحيا المرء دونها : فعلى السلطة ان تفهم الفلاح ان له حقوقًا وان بامكانه ان يطالب بهذه الحقوق ، اذا ما تحقق له ان القساوة والضغط يحطان من قيمته ، وان الارباح التي يسمح له بها الاشراف والمتملكون لا تناسب الاتعاب التي يصرفها في سبيل الرؤساء .

اما الآن فانه يجهل بتاتًا روح الحق وطرقه . يجهل الامانة ، والمروءة والصدق . شغله خالٍ من اللذة لان الذين يميت نفسه في سبيلهم لا يكافئونه الّا بالاهانات والتحقير . لا يكب على العمل الّا اذا رفع الكرباج وراء ظهره ولذا طرق الشغل عنده خالية من الابتكار . نفسه محصورة بين الجهل والقساوة

لا يعرف من الحياة الا العمل والتيز والذل . لذلك نرى البعض يتساءلون عما لا يدفع الفلاح الى التظاهر بالمقاومة والثورة . اولئك يجهلون ان الفلاح يعيش منفرداً في بقعته وان لا علاقات له مع الخارج . فالطفل ينشأ في محيط اهله ويتغذى من افكاره ويتبع الخطة المرسومة ويندفع امام التيار الدائم دون ان يعرف انه من الممكن ان يقاوم هذا التيار . يباشر في مدة صغره مدرسة الشيخ فيتلقن فيها بعض مبادئ الديانة الاسلامية ، ثم يندفع قبل العاشرة الى تحمل ضغط المحيط . اصبح اذن ذهن الفلاح ضعيفاً لكثرة ما اعتاد الاخذ دون رد او جواب ، واصبح عقله غليظاً غير قادر على ان يفيق من سبات طويل لا يزال يغرق فيه يوماً بعد يوم .

٥

اذن بالرغم من عمران مصر وازدهارها فان اربعة اخماس السكان لا يزالون على ما كانوا عليه في عهد الفراعنة سواء في عقليتهم وعاداتهم او في طرق معيشتهم وشغلهم . والمشكلة في ذلك ان نعرف الاسباب التي تبرهن عن هذا الجمود العقلي الذي يجعل الفلاح المصري في طبقة متأخرة . .

فنهم من يرجع هذا الى قلة الطعام او الى عادة الاستمناء ، او الى المناخ ، ولهذا اخذوا يطالبون بتثقيف الفلاح .

لكن كثيراً من المديرين يظنون انه اذا ثقف الفلاح انقاد الى التعاسة وان حالته النفسية الحاضرة المركبة من عدم شعور وعوائد معروفة سهلة هي اسعد حال له . فهو لا يتألم من هذه التعاسة التي تحيط به وهو لا يشعر ان له حقوقاً وملذات يمكنه ان يطالب بها . فان قلنا له ان له حقوقاً فقد نفيق في قلبه مطالب هو بغنى عنها . وهو اذا سعى وراء الراحة والملذات اشمأزت نفسه من الاشغال الزراعية المتعبة . فماذا يحل بمصر والمصريين عندئذ ؟

وقد اكد احد النواب سنة ١٩٣٣ ان تثقيف العامة هو السبب الاوحد المؤدي الى هلاك البلاد .

اننا لا ننكر ان في هذا الزعم شيئاً من الصواب ، وانما نقبله اذا لم نميز بين التعليم الخالي من التثقيف والتعليم المطابق لعقلية الفلاحين . اما هذا الاشمئزاز

الذي يتكلمون عنه فانه ينتج من تعاسة وفقر اكثر مما ينتج من هذا التثقيف.

ولكن لا نخالنا صادقين اذا توقفنا في حديثنا دون ان نشير الى التحسينات التي جرت في مصر في العشر السنوات الاخيرة. ان الاب عيروط يقول ان مصر الراقية ابتدأت تعنى بمصر المتأخرة. لكن النتيجة لم تكافئ بعد هذه المساعي على ان الأمل كبير بثبات الحكومة في مسعاها الانساني الضروري.

م. ع.

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب في الجامعة المصرية

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ١٣٥٥-١٩٣٦

ان اثر الفلسفة اليونانية في تطور الفكر البشري غني عن كل بيان، واغنى منه تأثيرها على مفكري الشرق والاسلام. فاذا كان من المستطاع ان نقول ان للعرب فلسفة فلانهم تتلمذوا لفلاسفة اليونان واتخذوهم لهم هداة، يدرسون مؤلفاتهم ويشرحونها ويعلقون عليها وذلك اعتقاداً منهم ان اليونان وضعوا اصول الفلسفة. وحسبنا ان نذكر راي العالم الاسلامي الكبير البيروني الذي اطلع على علوم اليونان وعلوم الهند فرأى ان الهنود كانوا يعترفون لليونان بان ما أعطوه من العلم ارجح من نصيبهم (الهنود) منه... «كنت اقف من منجميهم مقام التلميذ من الاستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلًا لها اخذت اوقفهم على العلل واشير الى شيء من البراهين والوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا عليَّ متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين... فكادوا ينسبونني الى السحر... اقول ان اليونانيين كانوا على مثل ما عليه الهنود من العقيدة ولكنهم فازوا بالفلاسفة... نقحوا لهم الاصول... ولم يكن للهند امثالهم ممن يهذب العلوم فلا تكاد تجد لهم خاص كلام الا في غاية الاضطراب وسوء النظام... اني ما اشبه ما في كتبهم من الحساب ونوع التعاليم الا بصدف مخلوط بخزف. والجنسان عندهم سيان اذ لا مثال لهم لمعارج البرهان؟

وهذا لا يعني ان الفرس والهنود والصينيين لم يزاولوا النظر العقلي المجرد الى حد بعيد لكن غايتهم كانت دينية في المقام الاول. ارادوا ان يجدوا سبيلاً الى النجاة من الشر المحيط فلم يأتِ العلم غاية لذاته بل وسيلة للتخلص من الشر والألم. فلم يتوصلوا الى تبين ماهية الفلسفة كعلم مستقل. فكان من نصيب اليونان ان يتوفقوا الى وضع الفلسفة علماً كاملاً قائماً بذاته مبنياً على التجربة والبرهان لا على الكشف او الاشراق. وان حصل لهم ان تطلعوا الى الكشف فانهم حاولوا ان يفهموه كشفاً عقلياً. وساروا على هذا المبدأ معتمدين على قوى العقل الطبيعية حتى اواخر عهد الفلسفة اليونانية حين جاءت الافلاطونية الحديثة التي عدلت عن العقل الى الذوق وردّت هذا الى المقام الاول. وهكذا يظهر ان التفكير الشرقي كان بمثابة المقدمة للفلسفة اليونانية التي جاءت على نحو علمي. لكن هذه الفلسفة لم تأت بنت يوم او وليدة عقل رجل واحد توفق الى وضع اصولها وشاد بناءها دفعة واحدة لكنها كانت نتيجة محاولات عديدة توالت على مدى اجيال قام بها رجال عظام كانوا تارة يتفقون في الرأي وتارة يختلفون. فهذا الكتاب هو تاريخ محاولاتهم ونضالهم في سبيل الحقيقة والعلم.

ليس كتاب الاستاذ كرم الاول من نوعه من حيث الموضوع في اللغة العربية. لكنه ينفرد بمزايا كثيرة لربما تجعله احسن ما كتب حتى اليوم اذا غضضنا النظر عن المطولات. فهو اولاً حسن التبويب والتنسيق يقسم الفلسفة الى ثلاثة ادوار: «دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول».

والدور الاول فيه وقتان: الوقت المسمى بما قبل سقراط. وهو يمتاز بالاتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة، ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر الى مسائل المعرفة والاخلاق.

والدور الثاني يملأه افلاطون وارسطو. اشتغل افلاطون بالمسائل الفلسفية كلها، وجهد نفسه في تمحيصها، ولكنه يمزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة، حتى اذا ما جاء ارسطو عالجها بالعقل الصرف، ووفق الى وضعها الوضع النهائي.

والدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود الى الاخلاق والتأثر رقي، والميل الى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية. والكتاب كله شرح

لهذا الايجاز.»

والكتاب اربعة ابواب تميز مواضيعها الهامة ارقام ، ويتسلسل كل موضوع على فقرات تدل عليها حروف الابجدية . وهكذا يكون لكل مسألة وحدة ووضوح معاً ويتيسر على القارئ طلب الامور في مكانها دون حاجة الى قراءة الفصل بكامله . هذا من جانب المظهر . اما المادة فان المؤلف مطلع اطلاعاً واسعاً على اهم واخطر ما ظهر عن تاريخ الفلسفة اليونانية في اللغات الاوروبية . واستقى من هذه المصادر متوخياً ان يجعل كتابه على نسق المؤلفات الاوروبية هذه .

وهناك شيء آخر يستحق المؤلف الثناء عليه — وهو ليس بالامر اليسير في طور الفلسفة العربية اليوم — هو التوفق الى استنباط مصطلحات فلسفية جديدة كلما اضطره المقام ولم يجد عند الاقدمين ما يفي بالحاجة . ثم اردف كتابه بجدول اشبه شيء بقاموس صغير لهذه المصطلحات باللغة العربية والفرنسية نراه مفيداً ومساعداً على توحيد التعبير .

وهاك نموذجاً عن نسق المؤلف وسلامة اسلوبه جاء به في خاتمة الباب الثاني عن افلاطون :

« نرجو ان نكون قد وفقنا في اثناء تصويرنا مذهب افلاطون الى إشعار القارئ بعض الشيء بسمو روحه وعمق فكره وتنوّع أسلوبه . جمع افلاطون في شخصه كل مزايا العقل اليوناني فابلغها الى اقوى وابهى مظاهرها : الجرأة والتؤدة ، الحدس والاستدلال ، العاطفة والملاحظة ، الفن والرياضة ، واستوعب جميع الافكار فمحصها الى حد بعيد ، وسلكها في نظام واحد بديع ، واجتمع جميع النزعات الروحية ، فاستخلصها من الأرفية وسائر الاسرار ، ووضحها واحالها معاني عقلية ؛ فنقل الدين الى الفلسفة : قال ان المطهرين الذين تتحدث عنهم الاسرار ما هم الا الذين يعنون بالفلسفة بمعناها الصحيح ، وان الفلسفة هي التي تخلص النفس وتدخلها النعيم . واعلى كلمة الفلسفة على كل كلمة . فكان بكل هذه المميزات احد ينبوعي حكمة نهلت منه العقول من ايامه الى ايامنا ، ولن تزال تردد الى ما شاء الله . والينبوع الآخر تلميذه ارسطاطاليس . »

ي . ع

سلسلة احاديث كلية العلوم عن العلوم المبسطة : المجموعة الاولى

كلية العلوم في جامعة فؤاد الاول . القاهرة ١٩٣٨-١٩٣٩ ، ١٩٣٩-١٩٤٠

لقد اخذنا نرى في شرقنا العزيز تباشير نضج علمي ، إن كان لا يزال ينقصه الكثير من المشجعات البيئية فانه اصبح ذا شأن لا بأس به . ان عندنا اليوم فئة من العلماء الشرقيين الذين اخذوا العلم عن علماء الغرب بل واخذوا معه حب العلم والشغف به ، شأنهم في ذلك شأن اجدادهم ، وشرعوا يجارون اساتذتهم ؛ فمنهم فئة في بيروت وفي الشام وخاصة في مصر التي تتزعم النهضة العربية بلا مراء لتوفر المال والرجال ولبعد اتصالها بالمدنية الغربية . واذا كان اهل الشرق يفخرون بعلمائهم الجدد وبنهضتهم فان هؤلاء العلماء يأبون على انفسهم ان يكتفوا بمثل هذا الفخر والاعجاب ، بل يريدون ان ينشروا العلم على الناس ليستفيد الناس من العلم بالعمل . لان العلم المحصور في ادمغة معدودة او في طيات الكتب لا ينفع الا قليلاً . يزاد على ذلك ان العلماء يجدون حافزاً لهم على التنقيب والبحث اذا ما عمر الجو العلمي حواليهم واهتم الناس بفائدة العلوم ومتعتها واخذوا يستزيدونهم علماً .

ولكن لنشر العلم على الناس في شرقنا عقبات جمة . منها قلة المثقفين ثقافة عالية ، وصعوبة اللغة وقصرها عن تمكين الباحث من تبسيط المسائل العلمية بكلام مفهوم قريب المنال يستطيع معه ان يحافظ على التدقيق والسهولة في آن واحد .

غير ان هذه العقبات ليست مستحيلة التذليل وكما انها ذللت في بلدان اخرى فانها يجب ان تذلل عندنا . وهذا ما حدا بعض الاساتذة في مصر وفي طليعتهم الاستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفه بك على الاقدام على هذا العمل . فلجأ الى وسيلتين تكمل الواحدة الاخرى . اولاهما ان طلب الى العلماء الاساتذة او سواهم الذين تخصصوا في علم ما ان يلقوا على الشعب بالراديو حديثاً وجيزاً في موضوع من مادة اختصاصهم في يوم معين من الاسبوع . وان يكون رائدهم الدقة العلمية والتشويق ما امكن ، على ان لا يكون تشويق الزخرف والدعاية انما التشويق